مكتبة | 211

الطبعة الثالثة

تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

رواية

سلام الله على عينيك

محمد السالم

سلام الله على عينيك

مكتبة الرمحي أحمد

ⓒ دار تشكيل للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السالم، محمد
سلام الله على عينيك. / محمد السالم ـ الرياض، ١٤٣٨هـ
١٣٦ ص؛ ١٤ X ٢١ سم
ردمك: ٦-٥-٩٠٩٦٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٨/١٠٠٨٩

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٠٠٨٩
ردمك: ٦-٥-٩٠٩٦٨-٦٠٣-٩٧٨

لوحة الغلاف: نورة الزهراني
@iN0rh

تصميم الغلاف: محمد السالم
@iMohammedB

تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution
@Tashkeell

telegram @ktabpdf

سلام الله على عينيك

رواية

محمد السالم

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد

تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

٢٠١٧

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

إهداء:

إلى كل الذين أحبّهم .. وليس ثمة غيركِ.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

(١)

سلام الله على عينيكِ/ بداية الغواية، ومرفأ الأمنياتِ. أيتها العاتكة، لم يفِ للأطلال عطرُكِ، ولم أنسَ يومًا أنكِ رياحي.. فيكِ وجعي ولهفتي، وعلى ضفاف خاصرتكِ كانت تبرد نيراني. كلما عبرني اسمُكِ في غفلةٍ؛ يتوقف بي الزمن، وأغرق في ذاكرتي.. حيث لا يعود للمكان قيمة، وأسافر في الأثير! أحاول التقاط إشارة صوتكِ.. لا أصطاد شيئًا غيرَ ضجيجٍ لا يسمن ولا يغني من حنين! ثم أعود إلى جسدي بروحٍ ناقصة كأنها وضعت في مكانٍ خاطئ، لم تعرف صاحبه من قبل!

أكتب إليك الآن وأنا في حالة اندثار. ليس للكلمات معنى حين لا تكون لكِ، ولستُ أعرف ما يُكتب في امرأةٍ مثلكِ، لكني من فرط الحنينِ أعود إلى أغانينا.. أستمع إليها وأنتظر أن يأتي صوتكِ على عجلٍ ليكمل نغمها، ويضعني على حافة الطمأنينة كما كان دائمًا يفعل.

مكتبة الرمحي أحمد

ألستِ أنتِ من أخبرتني ذات يوم أن كلَّ أغنية تحبينها هي رسائلكِ الصغيرة إلى قلبي؟ إذًا؛ فما لي الآن أستمع إليها وحدي دون أن يكون للمرسل عنوانُ عودة؟

لم تكوني الحبّ الأول؛ لكنكِ كنتِ الحبّ الحقيقي.. ذلك الذي يقول: ليس للنسيان باب، وكل محاولة هي محضُ احتراق! لا بردَ ولا سلامَ فيها. وكيف أنسى! ووحدكِ من زرع بذرة الحبّ فيّ، حتى نمت وتفرعت أغصانها واخضرّت أوراقها ثم رحلتِ عنها في خريفٍ لم يرأف بوحدةٍ باتت تسكنها

كأن القدر يعاود اختباري، يقيس مدى صلابتي، ويرسم لي خطوطًا أخرى، غير تلك التي أتلهّف، لأعبر فوقها على محطات الألم ومن خلالها أدخل متاهات الصبر. أنا الذي لا يحب لعبة الاحتمالات، ولا يسهب في أحلامهِ.. أصبحت على سبيلِ اختيارٍ واحد.. لا أحيد عنه! وفي حلمٍ وحيدٍ لا أرغب بأن أنال غيره/ أن نعود معًا إلى البداية!

يتراءى لي وجهُكِ على سحابةٍ بعيدة، أمدّ يديّ نحوها وتأبى أن تمطر؛ فأتراجع إلى قوقعتي كتائهٍ ليس هناك من يجيبُ نداء استغاثته سوى طيفٍ يشابهكِ، يجالسني في صمتٍ.. كلما حاولتُ كسرهُ؛ غادرني!

telegram @ktabpdf

هنـاك، بين الغربـاء، كُنّا غريبيـن.. وأصبحنا، بعد هـذا الحبّ، بعيدين.

*

كل مـا قالـوه لي أن هنـاك فتاة جديدة سـتصل اليـوم إلى مطار «بريسـبين» السـاعة الثامنـة مسـاءً، وأنـه يتوجـب علـيّ الذهـاب لاسـتقبالها كمـا أفعـل عـادة كلمـا وصـل طالـب عربـي جديـد ليبـدأ دراسـته فـي هـذه الجامعـة. أفعل هـذا كنوع مـن الخدمات المدفوعـة مـن الجامعـة لأسـتطيع سـداد رسـوم دراسـتي. يبعـد الطريـق مـن مدينتـي «تووومبـا» إلـى «بريسـبين» قرابة السـاعتين. لـم أرتـدِ شـيئًا جيـدًا لمـن كنـتُ بصـددِ لقائـه، وانطلقـت فـي طريقـي مبكـرًا. لـم تكن الشـمس قـد غربـت بعـد، ولا أدري لمَ توقفـت أمـام مزرعـة «التوليـب» المتاخمـة للطريق السـريع نحو «بريسـبين». كان هنـاك شـيء مختلف هـذه المـرة، راودتني رغبة فـي الـورد وشـاب مثلـي ليـس لديـه أحـد ليقـدم الـورد إليـهِ، لا يوفقـه أمام هذه المزرعة سـوى القـدر. ابتعـت وردة واحدة فقط، ناولتنـي إياهـا فتاة كانت تقـف أمـام المدخل. شـكرتها وأكملت طريقـي وأنـا أتلمّـسُ منفـذًا لرغبتي تلـك/ أن أرغـب بالحصول علـى وردة!

حينما وصلت إلى المطار كانت الساعة تشير إلى السابعة، تبقت ساعة أخرى قبيل وصول الطالبة الجديدة. تصفحت بريدي أبحث عن اسمها.. وجدته: «ساره عبدالوهاب». أخذت ورقة وكتبت الاسم بالعربية والإنجليزية. بعد ساعتين بدأ القادمون بالتدفق من بوابة الخروج، كنتُ واقفًا بجانب السياج الحديدي أحمل الورقة أمام وجهي، وأحدق من خلفها في الوجوه القادمة.. وجوهٌ سعيدة، وجوهٌ مرهقة.. وجوهٌ تبحث عمّن ينتظرها، وأخرى تبحث عن عناقٍ يعلن وصولها إلى الوجهة المنشودة. بعضهم يحصلون على ما جاؤوا من أجله، وآخرون تخيب ظنونهم.

وجهٌ واحد تعلقت بهِ عيناي، ولا أذكر أني قد رمشتُ لمرةٍ واحدة وأنا أنظر إليه، والمسافة الطويلة التي بيننا لم تكن عائقًا لأتشبث بجمال خَلْقِه!

كان وجهًا لمرآة الكمال، وملامح الحُسنِ.

سألت نفسي حينها:

- منذ متى لم ترَ وجهًا بهيًا كهذا يا غسان؟

- منذُ خُلِقت!

كم عامًا مرّ من عمرك؟ وكم عامًا ستستيقظ وحيدًا تحدق في اللا شيء، تبحث عن شيء يستحق أن تنظر إليه؟

telegram @ktabpdf

خمسة وثلاثون عامًا، والعمر ساعة إلهية لا تتوقف!

ما زلت أنظر إليها من بعيد.. العالم متوقف تمامًا، عيناي باتجاه نقطة واحدة!

قد يهطل مطرٌ، أو تشرقُ شمسٌ، وما أزال أنظر إليها! تعبُ العمر يخرج من جلدتي، وأنسى أيام الوحشة، والبرد، وأبقى أنظر إليها ممتلئًا بكل رغبة.. دافئ وممتن للحظة.

أحدث نفسي كلما رأيتها تقلب بصرها بين الحضور.. إلى أين تنتهي هذه الياسمينة.. من أتى ليأخذها! العالم كلّه قد يجمعه هذا الحسن.

هل تبتسم لي؟ أم أن من جاء من أجلها يقف خلفي؟

هل تقترب مني؟ أم أن خطواتها لا تزيد بي إلا الدفء؟

إنها تلوح، وتسير باتجاهي، ما يزال العالم متوقفًا! وحدها تسير، الورقة صارت تحدّ من رؤيتي، أخفضتها، نظرت إليها.. أردت أن أفتح ذراعي وأقول لها: ظمآن!

تقف أمامي أخيرًا، أرجع للوراء، أنتظر أحدًا يقترب منها، لكنها تقترب مني، تلوح بيدها، تقول:

- أنا ساره.

أقول لها:

- أنتِ ساره؟!

مكتبة الرمضى أحمد

هكذا بدأنا أيتها البعيدة، غرباء تجمعنا محطة توقف، تلويحة لقاء، كلمة عابرة، ولحظة أبدية نبقى عالقين فيها لا نبحث عن مخرجٍ، وإن كانت بداية لكل نهايةٍ تجمعنا!

ألم أقل لكِ أنكِ أكبر من كلِ ظنوني؟ وأني وإن أحسنتُ الظنّ.. لا أجد روحي تغيب في حبّ فتاةٍ مثلكِ؟ حينها شعرتِ بالمبالغة في حديثي.. قلتِ لي: لستُ أفضل ما يمكن أن تحصلَ عليه!

أجبتكِ: بل أكثر مما أستحق أن أحصل عليه.

*

لم أحبّ تجاهلكِ لي في طريق عودتنا إلى المدينة. ولم أشأ أن أكون مسرفًا في لعبِ أوراقي في لقائنا الأول. أذكر جيدًا انغماسكِ في شاشة الهاتف. ابتسامتكِ التي كان يسقط فوقها ضوء الشاشة، وطريقنا الطويل المظلم لا يترك لي مجالًا سوى محاولة التلصص على وجهكِ الفاتن بين الحينِ والآخر.

- هل يمكننا أن نحصل على قهوة؟

- سأتوقف إن وجدنا محطة على طريقنا.

حسنًا.. هذه كانت أول محادثة بيننا، قصيرة وبسيطة.. لم

telegram @ktabpdf

تتحدثي بلغتكِ. الإنجليزية هي ما سألتني به وكأنكِ من الآن ترسمين حدودًا واضحةً بيننا. لا يهم.. تريدين قهوة، وأنا أشعر أنيّ أريدكِ، وأنكِ قطعة سكرٍ لا قهوةَ بعدكِ!

أعود وأسأل نفسي: هل ما حدث حلم؟ أم أني من إرهاق وحدتي أفتعل أشياء لا تحدث سوى في صالات السينما؟ ماذا يرمي لي القدر، أي طعم هذه المرة، وهل يجدر بي التفكير بنهايته لئلا تصفعني الحياة كما تفعل عادةً كلما غرقت؟

بعد بضع دقائق.. سألتِ: سعودي؟

- من الرياض.

أجبتكِ وأنا أنظر إلى يدكِ التي تدس الجواز الأخضر في الحقيبة. أعلم المكان الذي جئتِ منه. إنه نفس الموطن الذي ولدت فيه، وتعلمت تقاليده وعاداته حتى أصبحت أحد المتعثّرين.. الذين يخافون ما يختلف عنهم، ويرفضونه وإن كان جيّدًا! تعلقوا بما لديهم وكأنه كافٍ، وكأنهم لا يحاربون شيئًا، ثم يتكفل الزمن بتطبيعهم عليه.

مشكلتنا الدائمة أننا نفضل الغرباء، معهم يمكننا التصرف بأريحية، نظهر الجيّد والسيء فينا كما يفعل بقية البشر بعفوية دون تحصن من الكلمات وظنون الآخرين.

لكنكِ الآن تدركين أني لست غريبًا بما يكفي، وأني سأعود

مكتبة الرمحي أحمد

يومًا ما إلى نفس المكان الذي أتيتِ منه.

بعض الأشياء تكون أجمل في بعدها، وتفقد قيمتها في نفوسنا متى ما حصلنا عليها!

هذا ما شعرت به من سؤالكِ، رغم أنك لم تفعلي شيئًا يستحق التهميش حتى الآن، كان بودي أن أسألكِ عن شيءٍ واحدٍ فقط: كيف خلقتِ بهكذا جمال!

توقفنا عند محطة على الطريق بعد بضع دقائق من محادثتنا الأولى، عرفت أنكِ لا تستحسنين أن أتحدث إليكِ بلغتنا المشتركة، عدت إلى لغة الغرباء. أخبرتكِ أن تدخلي إلى المقهى المتاخم للمحطة ريثما أعيد تعبئة السيارة بالوقود. نزلتِ سريعًا وكأنكِ تتداركين خطأ مفاجئًا.

ركنت السيارة جانبًا بعدما انتهيت مما أفعل، وانتظرتُ عودتك. الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، الحياة نائمة في المدينة. الآن، كلّ ما أريده هو العودة إلى سريري، قد أدخن كما أفعل عادة، أو أتصل بعفاف لتسهر معي، لكن لا يبدو الأمر صائبًا بعدما رأيت هذه المخلوقة/ أنتِ.

قاطعني صوت خطواتكِ القريبة، ركبتِ السيارة وفي يديكِ كوبان قهوة وكيس ورقي مملوء بـ «الدونات».

مددتِ لي كوبًا.. أخذته، وأكملنا طريقنا.

telegram @ktabpdf

في الطريق قررتِ أن تتحدثي إليّ، سألتني:

- ما اسمك؟

- غسان.

- كم لك هنا يا غسان؟ أعني في هذه البلاد؟

- خمس سنوات، أتممها الشهر المقبل.

- هذه فترة طويلة.. ألا تحنّ إلى الوطن؟

- ليس هناك من يرغب بالعودة مما يهرب منه.

- تعني الوطن؟

- أقصد أشياء فيه.

جذبكِ حديث السطور المبهمة. عدلتِ من جلستكِ، أصبح جسدكِ مائلا باتجاهي. إن الحديث يريحكِ شيئًا فشيئًا، وكنتُ آمل ألا تكوني ثرثارة! فليس هناك شيءٌ يبدد الجمال سوى لسان لا يتوقف عن الحديث في كلّ أمر يعلمه أو يجهله.

إنكِ تتحدثين الآن، تخبريني عمّا تنوين دراسته، عن تطلعاتكِ، عن رغبتكِ بالبقاء هُنا للأبد. كان صوتكِ يعبرني بنعومة.. خجل يربككِ أحيانًا؛ فتعودين لتصيغي عباراتك. أخطف نظرة باتجاهكِ، شعركِ غجريٌّ طويل، عيناك واسعتان.. آسرتان! أنف دقيق، بشرة سمراء وناعمة كشمس.. الحديث يخرج من شفتيكِ ببطء، حين تضحكين تبدين أكثر

مكتبة الرمحي أحمد

جمالاً، أتابع تحركات يديكِ كلّما تعمقتِ في الحديث عن شيء.

أحدث نفسي في ذات اللحظة.. ماذا لو أني فقدت عينيّ قبل أن أرى هذا الوجه؟ أغرق في السواد بذاكرة تحمل وجوهًا بائسة لا تجلب في خاطري بهجةً ولا ارتياحًا.. حينها أكون فقط محاطًا بأشخاص لم أرغب برؤيتهم.

أعاود النظر إليكِ، أسهو إلى ملامحكِ.. أقول في داخلي: ليتني أخبئك في عينيّ قبل أن ينتهي هذا الحلم الجميل.

*

وصلنا إلى المدينة قبل منتصف الليل، اتجهت مباشرة نحو الحرم الجامعي حيث سكن الطلاب هناك. أخبرتكِ أننا جهزنا لكِ غرفة مؤقته تستطيعين أن تستقري فيها ليومين بلا رسوم.. بعد ذلك يتوجب عليكِ دفع الرسوم أو اختيار مسكن آخر.

أومأتِ برأسكِ علامةً على الرضا.

وقبل أن أودعكِ أخبرتكِ أين قد تجديني في الجامعة متى ما أردتِ شيئًا. إنه إجراء تقليدي أقوم به مع أي طالب مستجد، ولكن هذه المرة شعرتُ بأني أريد لقاءً آخر مع عينيكِ. شكرتني وهممتِ بالذهاب، وما إن وصلت إلى سيارتي حتى

telegram @ktabpdf

وجدتـكِ تلحقيـن بـي، توقفت وسـألتكِ عمّـا تحتاجينـه، قلتِ:

- هـل يمكـن أن أحصـل علـى رقـم هاتفـك؟ لا أعـرف أحدًا هنـا سـواك وأخـاف أن أتوه.

لم أمانع، ونقلتكِ رقمي الخاص.

- اتصلي في أي وقت.

وكم وددتُ أن تتصلي!

*

الواحدة فجرًا في تلك الليلة:

مسلتقٍ على ظهري، أحدق في العدم، جسدي منهك، أشعر بقدميّ ثقيلتين، صمت المكان نهر يجرفني، الوسادة باردة، والأرق يتربص بي كعادته.

تمرني صور قديمة: وجه أمي، طفل يرافق أباه في حفل زواجه الثاني، طفلٌ آخر فقد والديه، امرأة يقولون لي: هذه زوجتك.. رجل يقف عند باب منزل، مكتب طويل أجلس في آخره وحيدًا، ووجه يحدق في مرآة مكسورة.... إنه وجهي.

أتذكر المرأة، اسمها «نادية»، قالوا لي إنها ستصبح زوجتي، حاولت الرفض، أقنعوني بأنها الخيار الأفضل، لكني لا أعرفها! قالوا: «تعرفها مع الوقت».. حسنًا دعوني أراها على الأقل، «ستراها يوم تصبح في بيتك»، أجابوا!

جاء يومُ تكون في بيتي.. رأيتها، حسناء جميلة، شعرها القصير داكن ويداعب وجهي كلما احتضنتها، قوامها الممشوق لا يترك ليلًا يهدأ بي، لكنها باردة، بعيدة عني، تزج بكلماتها وكأنها تغتصب، لم تنظر يومًا لعينيّ، كانت تؤدي واجبها فقط، قلت الأيام تصلح الحال، لكن الأيام أفسدتنا.

مشغولة على الدوام، زياراتها الخارجية كثيرة، تعود لتمسح

telegram @ktabpdf

وجهها وتغط في نوم عميق، أنظر إليها من بعيد، أظن أنها لم تعتد عليّ حتى الآن، سأنتظر، وكلّما انتظرت زادت الفجوة بيننا .

أحجز مقعدين على الدرجة الأولى باتجاه باريس، أقول ستكون فرصة لنقترب، أعود إليها مبتهجًا بما أحمله معي، أخبرها عن الرحلة وتهز رأسها بلا ابتسامة.

هل هنّ بهذه الصعوبة؟ أسأل نفسي.

لم أعرف فتاةً غيرها من قبل، هي الأولى، ولم أكن أنوي على أخرى كما يفعل أبي متى أراد أن يعود لشبابه حسب ما يقول. أذكر الطريقة الذي يتعامل بها أبي مع نسائه، جافة وقاسية، لم ينادِ أمي يومًا باسمها.. «أم سعد» لا شيء آخر غير هذا اللقب، حتى أني ضحكت خجلًا حين أخبرتني أمي باسمها ذات مرة، كنت طفلًا حينها، وظننت أنها «أم سعد» فقط، لا شيء غير هذا الاسم. «سامية» اسم لا يذكره أبي ولا يعرف صاحبته.

حين جاء يوم سفرنا، أخبرتني بأنها متعبة ولا تقوى على السفر، ثار غضبي، وقلت لها أننا ذاهبون لا محالة. لم تستمع لكلامي وأقفلت على نفسها الباب. ظللت أناديها، أشتم أحيانًا، ولكنها لا تجيب.

مكتبة الرمحي أحمد

متعة الحياة في رفيق ينتشلك من الحزن، يصاحبك في عسرك، ويحنو عليك حين تقسو.

لكن حياتي معها مثيرة للشفقة، كلما أردت أن أسعدها جلبت أسبابًا عديدة للضياع، الخطوة باتجاهها تردها لي بمسافة أميال نحو الهاوية حيث لا يمكنني أن أصمد أكثر.

قضيت تلك الليلة منبوذًا خارج الغرفة، لم تخرج منذ الصباح، قلت لها بأني أسامحها، وأننا سنبقى هنا، فقط اخرجي لي. كلميني! ولم يصل صوتها.

غرقت في النوم على الأريكة، حتى خرجت بوجهٍ أصفر شاحب. لم أصدق ما رأيته، لا بد أنها تفعل كلّ هذا لئلا أكذب خداعها. اقتربت مني، وقالت:

- هل يمكن أن تأخذني للمشفى؟

خرجت بها لمشفى قريب، أردت أن أدخل معها للطبيبة لكنها رفضت، بقيت في الخارج أنتظر. خرجت بعد عدة دقائق.. مرت بجانبي ولم تكلمني، تبعتها، حتى دخلت للمختبر.

الجدران هنا بيضاء، الإبرة تمتص دمعها كما لو أنها بعوضة، الصمت يتمدد بيننا، أكسره وأسأل الممرضة لما هذا التحليل؟

telegram @ktabpdf

تجيب: تحليل حمل!

شيء يزاحم صدري، لا أعرف هل أسميه فرحًا أو ترقبًا.. شيء يبقيني داخل برواز الانتظار متجمدًا.

ثلاثون دقيقة، هي ما تحتاجه الآن لتأكيد قدوم كائن جديد لهذه الأرض، تمضي الدقائق، تجيء النتيجة، إيجابية!

يتعثر لساني بحمد الله.. فرح ينزل عليّ من السماء، أقترب منها، أخبرها بأني أحبّها الآن أكثر، تنكفئ على نفسها، تبكي.... وتبكي!

انكسرت روحي، ومشيت بجسدٍ خائر.

- ألا تستطيع أن تفهم؟ لست أحبّك، لم أحبّك مسبقًا، ولن أفعل مستقبلًا! ألا تفهم معنى أن تختبئ امرأة خلف وسادتها؟ أن تفضل الأماكن البعيدة على أن تكون بقربك؟ أن تتصنع التعب لئلا تقترب منها؟ هل تعرف ما كنت أشعر به كلّما فقدت أسبابي وجمعتني بك ليلة؟ كنت أبكي، أشعر بأني أغتصب، وما فوقي ليس إلا بكائن غريب لا أعرفه!

تقول لي لتجيب عن سؤالي الذي يريد أن يفهم أسباب تكدرها من هكذا خبر!

مكتبة الرمحي أحمد

لـم أشـعر بشـيء وقتها، ليس مـن العدل أن أشـعر بحـزن أمام مـا يفوقـه ألمًـا.. ليـس مـن العـدل أن أنكسـر مـرات متتاليـة من أنـاس وددت الحيـاة معهم.

لـم يكـن قراري الـزواج بها؛ فلم يكُـن ذنبي أني لسـت مرغوبًا لديها.

لـم تـزل تمكـث عنـدي بعـد مـرور يومـيـن ثقيليـن كنـا فيهما نتجنـب رؤيـة بعضنـا البعض، نتسـلل بخفيـة في ممـرات البيت، ثـم نعـود لمخابئنا.

أردت الاتصـال بسـعد، أخـي الأكبر؛ فهـذا الثقل الـذي يكتم صـدري لـم أعـد أحتمله أكثـر! لكن عمّـا أخبره؟ عـن خيبة؟ عن جـرح؟ عـن صفعـة لـم أكـن أحسـب لهـا حسـابًا؟ أو عـن رجل منهـزم فقط؟

تراجعت، وبقيت في قوقعتي لا أنتظر حدوث أي شيء.

*

telegram @ktabpdf

الرابعة فجرًا:

ما زلت سارحًا في شريط الذاكرة، صوت تنبيه يصدره هاتفي، مددت يدي والتقطته من فوق الطاولة، كانت رسالة من رقمٍ دوليٍّ أعرف جيّدًا مفتاح خطه الذي لم أستخدمه منذ اتصلت بأخي سعد قبل ثلاثة أعوام.

الرسالة تقول:

«هذه الغرفة مظلمة جدًا، ضيقة وأسمع صوت شيء يتحرك في فتحة التهوية، أظنه فأرًا! أريد أن أجد مكانًا آخر.. هل يمكن أن تساعدني؟ ليس الآن بالتأكيد، غدًا إن استطعت.

ساره»

*

مكتبة الرمحي أحمد

(٢)

لـم يطل الأمـر كثيرًا لنقع كسـمكتين في شـباك الحـبّ. كل ما كنـا فـي حاجته هـو ذلك الفـأر الـذي أقلق سـكونكِ في السـكن الجامعـي، وترحيب «أنثونـي» الذي أعيش معه فـي منزله لتكوني ضيفـة الغرفـة الفارغـة. كنا قـد بحثنا فـي المدينة كلها عـن مكانٍ مناسـب لتنتقلـي إليه، وفـي كلِ مرة كنـتِ تجدين عـذرًا لتمانعي. حيـن شـعرتُ بالتعـب من السـلالم التـي صعدناها والطـرق التي عبرناهـا، عرضـتُ عليـكِ أن نأخـذ اسـتراحة قصيـرة علـى أن نكمـل بحثنـا بعد ذلـك، وافقتِ؛ فذهبنـا إلى مـكان إقامتي. منزل يطـلُ على جـرف وادٍ تتعلـق فوقه المدينـة، تنفذ إليه الشـمس من جـداره الزجاجـي إلى وسـط صالـة المعيشـة المطلة على مسـبحٍ صغيـر. منـذ تلـك اللحظـة قررتِ أن تعيشـي هنـا، معـي رُبما، أو مـع ضـوء الشـمس! كانـت هنـاك غرفـة فارغـة فـي هـذا المنزل الـذي لا يسـكنه سـوى صاحبـه «أنثونـي» وغريـب فـي رحلـةِ هـروب. وفـي ذات اليـوم، كنـا معًا علـى طاولة العشـاء.

telegram @ktabpdf

بعد مرور أسبوعين، قال لي «أنثوني»:

- انتبه لعينيك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنها تفضحك. تقول ما في خاطركِ نحوها.

- لا.. الأمر ليس كذلك!

- حقاً؟

ومضى مبتعدًا وضحكاته تسبقه.

حينها أدركتُ أن الأمر قد أخذ مني ما لا أستطيع إخفاءه: اللهفة إليكِ!

بعد شهر، أخبرنا «أنثوني» أنه سيغادر المنزل لثلاثة أيام في رحلة عمل. طلب مني أن أتولى مهمة توصيلك إلى الجامعة في غيابه.. وافقت.

في صباح اليوم التالي، قبل أن يغادر «أنثوني»، همس لي:

- لا داعي للخوف الآن. أنتما وحدكما هنا، لكن لا تقتربا من «زجاجتي الحمراء»!

ثم ضحك بقوة.. سمعتِ ضحكته وخرجتِ من غرفتكِ لوداعه.

- وداعًا ساره.

*

مكتبة الرمحى أحمد

كان صباحًا باردًا. الخامس من يوليو كما أذكر. طرقت باب غرفتك وأخبرتكِ أني سأنتظركِ في الخارج.

- حاضر، خمس دقائق فقط وأكون معك.

لم يكن لدي محاضرات في ذلك اليوم، فقط رغبت بأن أتمم المهمة في إيصالك للجامعة ومن ثم أعود لسريري. قلّبتُ قائمة الأغنيات أبحث عن شيء يبدد هذا الهدوء إلى أن تأتي. وقع الاختيار على أغنية «لحن قلبي». بعد ثوانٍ قليلة رأيتُكِ تخرجين.. وشاحكِ الأصفر يطوق عنقكِ، شعركِ يبدو دافئًا من بعيد، تثبته نظارة شمسية تستقر فوقه. يسقط نور الشمس على وجهكِ فأراكِ تتوردين. كان الزمان يهرم ويسير ببطءٍ كلما اقتربتِ أكثر مني. حينها فقط، يا سارتي، قررتُ أنكِ لي.

لا يسعني التفكير في أن تكوني لأحدٍ غيري، ولم أكن متأكدًا أن قلبكِ فارغٌ من غيري.

لستُ ممن يقعون في الفخ سريعًا، أحبّ أن أحلّل تحركاتي، أضع أمامي توقعات مسبقة، وأحصي فرصي. لكن الأمر يختلف معكِ، أنصاع لقراراتِ قلبي، وأبتهل كطفل.

- مرحبا!

- أهلا ساره.

telegram @ktabpdf

وانطلقنا.

لم يكن وداعنا جيدًا حينما وصلنا للجامعة. كنتُ غاضبًا، ولم تفهمي لماذا أغضب من صديق ينتظركِ أمام مدخل الجامعة.

- تعرفينه؟

- تقصد علي؟ نعم أعرفه.

لم أستطع أن أمنعكِ من الذهاب معه، كل ما كان في قدرتي هو التشديد على موعد عودتك.

- الرابعة مساءً سأكون بانتظاركِ هنا. لا تتأخري.

- حاضر.

عدتُ إلى المنزل وأفكار شيطانية تعبث برأسي. ماذا لو أنه أعجبكِ، أعني «علي». ستكون نهاية كل أمل في قلبي. لن أصبح أكثر من صديق جمع بينكم مطار واحد، وسقف واحد، ومائدة صغيرة نمضغ الطعام فوقها على عجل!

حينما جاءت الرابعة، كنت بانتظاركِ أمام مدخل الجامعة. رأيت علي يركب سيارته قبل أن تأتي. مرّ بجانبي وألقى تحيةً بابتسامة مقيته. بعد دقائق وصلتِ أنتِ.

- جائعة؟

- جدًا.

مكتبة الرمحي أحمد

على الشرفة الخارجية لـ «جمايكن بلو» جلسنا على طاولة لشخصين. جاءت النادلة «سوزان» وألقت التحية عليّ، وضعت الصحيفة على الطاولة كما تفعل عادة، وسألتكِ عمّا تفضلين.

- قريلد شيكن.

ثم سألتِ:

- ألست جائعًا؟

- سوزان تعرف ما أحب.

ابتسمت النادلة وغادرتنا.

- هل يمكنك الآن أن تخبرني عن سبب سؤالك عن «علي»؟

- منذ متى وأنتِ تعرفينه؟

- منذ أول يوم لي بالجامعة. أجده لطيفًا، وكان يساعدني في إكمال أوراق الابتعاث.

- ألم تنتهِ من هذا الأمر؟

- نعم، أرسلت أوراقي قبل أسبوعين.

- إذًا، لم ما يزال يرافقك؟

- لا أعرف! اعتدنا على الجلوس مع بعضنا في الجامعة حين يكون لدينا وقت فراغ. بالمناسبة، قد أخرج معه غدًا.

telegram @ktabpdf

دعانـي على العشـاء.

- لا. لن تفعلي.

- ولماذا؟

- لأنه سيء. سيء فوق ما تتصورين!

- شـكرًا، ولكنـي لسـتُ بحاجـة للنصيحـة. يكفـي أنـه جيـد معي. أحمد

لـم أكـن لأصبر أكثـر، أحسسـت بأنـكِ تضيعين مني يا سـاره، شـعرتُ بـأن وجهـكِ يتبـدل، ينطفـئ نـوره الـذي جال فـي عتمة قلبـي حتـى أصبح منارتـي كلما تهت فـي بحر العتمـة. لم تدركي بعـد كـم أنكِ غاليـة، بل أغلـى مـا كان القدر يقـدم لي!

- هـل أخبركِ عمّا أعرفه عن علي؟ حسـنًا، لا شـك أنه وسـيم المظهـر وعـذب اللسـان. لكنـه زير نسـاء يا سـاره. زرته مـرةً في منزلـه، المنـزل الذي يتشـاركه مع ثلاثـة آخرين من نفـس المكان الـذي أتى منـه. لم يتردد فـي دعوتي لألقـي نظرةً علـى لوحةٍ كان يقـول بأنـه يعمـل عليهـا. صعـدت معـه إلى غرفتـه. هـل تعلمين مـاذا وجدت؟ لـم يكن هناك سـوى ألـوان ملابس داخلية نسـائية يعلقهـا علـى لـوحٍ فلينـي. نظـرتُ إليـه متعجّبـا، ضحـك وقـال: أنـوي أن أكملهـا حتى لا يبقى فيها فـراغ! ... أهذا مـن تريدين أن تصاحبيه؟ أهـذا صديق؟

- وهل هذا ما تظنه بي؟ أني سهلة هكذا؟ أني سأكون مجرد قطعة جديدة على لوح علي إن خرجت معه؟

- لا، لستِ كذلك. أعرف أنكِ أفضل من هذا يا ساره، وأعرف أن علي أسوأ من أن تكوني بقربه.

- أرجوك، دعني أختار من أريده إن كنت تثق بي حقًا، ولن أنسى نصيحتك.

أردت للقوقعة التي تحبس ما في صدري أن تنكسر. لم يعد هناك شيء لأخفيهِ عنكِ. الأمر بمثابة قطعة معدنية صغيرة تتقلب في الهواء وفي قلبك صلوات لأن تستقر على الوجه المنشود. وما كنتُ أنشد شيئًا سوى قلبكِ! قلت في نفسي: يجب أن أخبرها الآن. لا يمكنني أن أدعها مع علي. حاولت النطق.. ثم تذكرت محاولاتي السابقة في كسر الصمت، المحاولات التي كانت تنتهي قبل أن تبدأ.

عبر في رأسي وجه «نادية». جميلة، ولكنها لم تكن راغبة في الحديث معي، لقد حاولت ما في طاقتي معها من أجل كسب حوار لطيف يخلد في ذاكرتي صوتها، لكني في كل مرة أفشل. كان الحديث معها أقرب إلى الصمت، يستحيل فيهِ الكلام إلى حجارة تضرب في بابٍ من زجاج ولا ينكسر! تصمت وكأنها لم تتعلم يومًا أن تتكلم، لا ملامح وجهها تقول

telegram @ktabpdf

أنها تدرك ما أقول، ولا نظراتها تعني أني أوجه الكلام إليها.

قلت لها ذات مرة ونحن على طاولة عشاء: «أحبك».

ترقبت ردًا منها لتتسرب من فمي الكلمات الحلوة، إلا أنها اكتفت بشرب كوب مائها وكأن ما سمعته لقمةٌ مُرّة عبرت ثغرها.

أهذا ما تفعل كلمات الحب؟ لا أدري، كل ما رغبت بهِ هو إخبارك ما في قلبي. أني أحبك، وأنكِ تعلمين ذلك بطريقةٍ ما، إلا أنكِ تفضلين أن أبقى على شفى نار الغيرة أبحث عن مكانٍ لا يكون بهِ سوانا. تشجعتُ وأخرجت ما كان يثقل صدري من كلام.

- لكنكِ لا تفهمين الحقيقية يا ساره. نعم، أنتِ لا تفهمين كيف أتعلق بكِ يومًا بعد يوم. تظنين أني لا ألتفت إلى تفاصيلك الصغيرة التي بتُ أحفظها. أغنياتك المفضلة التي يصلني صوتها ليل نهار. أترغبين بأن أعددها لكِ؟ وأني لا أستوعب كيف لامرأةٍ واحدة أن تنال ألوان الكون كلهِ في عينين سوداوين! أصطاد ضحكاتك، نغمتها وإيقاعها.. لأخبئها في صدري، كلما احتجت لسببٍ للفرح أخرجت واحدة. في الحقيقة يا ساره، أني واقع في حبكِ لا محالة! وهذا أمر قد قُضي، ولا أملك أن أغير منهُ شيئًا. قد أملأ رأسكِ بالكلام

مكتبة الرمحي أحمد

الحلو حتى تغيب الشمس، ولكني لن أفعل، سوى أن أخبركِ ما أنا واثق منه جيدًا. إني أحبّكِ.

لم تأتِ منكِ إجابة. لا أذكر سوى صوت حذاء سوزان وهي قادمة نحونا حاملةً الأطباق، وصوت كرسيكِ العائد إلى الوراء ليعلن عن موعد المغادرة.

*

telegram @ktabpdf

قلتُ لكِ في طريقنا إلى المنزل:

- رُبما تسرعت في كلامي. رُبما غضبت أو انتابني شيء من الغيرة.. أو الغباء. سمِّه ما شئتِ، وأعتذر عن هذا. لن أتسبب بمشاكل لكِ، أعدكِ. فور عودة أنثوني سأخبره بأني وجدت مكانًا آخر للمكوث فيه. ابقي معه أنتِ. أعلم أن المكان يعجبك، وأنثوني سيهتم بكِ.

لا يمكن لرجل ألا يفقد أنفاسه حين يرى من يحبها تعبر إلى ضفةٍ أخرى ليست تحت رايته. حينئذ يثور بركان في داخله، يشعر بأغصانهِ تتساقط ولا حلّ لمعضلته سوى أن يحاول ألا يسقط بأكمله! تمامًا مثلما كنت أحاول. الآن أعود لأحصي ما تبقى لي من فرص، كلها تشير إلى النهاية. لا بأس، نهاية حاولت بها.

أعلم ما أمر بهِ الآن، هزيمة أخرى يا ساره، هكذا رأيتها. لن تكون هزيمة أولى، سبقكِ الكثيرون ممن هزموني. ما يزال صوت أبي يتردد في أذني: «أنت أغبى من أعطيك فرصة» يضحك أخي سعد على ذلك؛ لأنه يدرك أن هذا يعني تفرده بأعمال أبي التجارية. ما كان يهوِّن عليّ هو حضن أمي.. كفّها التي تمسح دموعي وتخبرني أن الله يعرف قلبي الأبيض. وأنه، في يومٍ ما، سيهبني كل ما أريده. قد لا يبدو أن هذا

مكتبة الرمحي أحمد

اليـوم هـو مـا كانت تقصـده أمي/ أنـي أخسـرك أيضًا. مـن قبلكِ خسـرت «ناديـة». خسـاره متوقعـة، لكن أقسـى ممـا تخليت.

*

في المساء:

صـوت أغانيـكِ كان يصلنـي. كنـت أتسـاءل: كيف لامـرأةٍ أن تتعلـق بالأغنيـات وهـي بحـد ذاتهـا أغنيـة إلهيـة لا أحـد يجـرؤ علـى صفِّ مـا يشـابهها؟!

أردتُ أن أنـام، لكـن شـيئًا فـي داخلـي كان يغنـي.. لـكِ. كنت أزداد لهفـةً لرؤيتـكِ مـرة أخـرى، وددتُ لـو أدلف لغرفتـكِ عنوةً وأقـول لـكِ: انسـي. راضٍ أن نبقـى صديقيـن، جاريـن، أو حتـى غريبيـن. لكـن أبقـى بقربـكِ. أظـل أنحـتُ صورتـكِ فـي قلبـي، وأدون تفاصيلـك الصغيـرة حتـى لا يبقى هناك أحـد يفهمكِ أكثر منـي. إنه أرحـم مـن أن نقـول: وداعًا.

*

telegram @ktabpdf

حيـن اسـتيقظت على صـوت المنبـهِ في صبـاح اليـوم التالي، وجدت رسـالة نصيـة منكِ:

(أسميهِ حبًا...

ولا تنـسَ أن تعوضنـي عن دعوة العشـاء التي لـن أذهب إليها. أريدها الليلة!)

*

مكتبة الرمحى أحمد

(٣)

نستطيع الآن أن نتبرأ من ماضينا! ماضٍ لم نكن فيه سوى دميتين تعبثان معًا، تبددان صمت المكان بضحكات طويلة، ويقلبن دقائقهم المعدودة إلى لحظات أزلية يخلدها كل جذع شجرة.

- ساره وغسان؟

- تبغين تفضحينا؟

- أكثر من كذا؟ ألا يكفي أننا متلاصقان في هذه الحديقة المزدحمة بالناس؟

أهز رأسي مستسلمًا. تفزين وتنحتين اسمينا، تتألم الشجرة، وأشعر وكأنكِ تنحتين اسمكِ على صدري.

- هذه الشجرة الثالثة.. أليس كذلك؟

- الرابعة تقصدين.

تضحكين من جنونكِ، وأنا أدون مكان الشجرة في ملاحظاتي. وكنتُ أعلم أن كل شجرةٍ ستكون دليلي إليكِ في يومٍ ما.

telegram @ktabpdf

- ساره ..

- نعم ..

- تعالي هنا.

- أستطيع سماعك. تبقى القليل فقط وأنتهي من هذه الشجرة.

- أمممم.. هل يمكنكِ تخيلنا معًا في المستقبل؟ أعني هل لنا مستقبل معًا؟ أم أنها الغربة التي لا تبقي لنا شيئًا نبدد بهِ قسوتها سوى الحبّ؟

توقفتِ عما كنتِ تفعلين. كان اسمي لم يكتمل بعد. (ساره .. غســ)

جلستِ أمامي وطلبتِ أن أعدل من جلستي. كانت ركبتانا ملتصقتين ببعضهما البعض. نظرتِ إليّ بابتسامة دافئة. كنتِ تعرفين الإجابة عن سؤالي مسبقًا، لكنكِ تحاولين البحث عن طريقة غير الكلام.

- انظر لعيني غسان.

نظرتُ إليها، شعرتُ بكل ذكرياتي السوداء تندثر، وأن النور يعبرني بخفة.

ثم أمسكتِ بيدي. أصابعكِ تمر عليها بنعومة، تمضي في خطوطها، واحدًا تلو الآخر.

– نادني.. نادني باسمي.

– ساره ..

جذبتِ يدي نحوكِ بسرعة، وضعتِها على قلبكِ وأنتِ تبتسمين .

– هل تشعر بهذا؟ بنبضات قلبي؟ لا يمكن لقلبٍ أن ينبض هكذا إلا إن كان حبًّا. ليس الآن فقط، كلما ندهت علي أجابك قلبي قبل أن ينطق فمي. أتخاف أن ترحل منك فتاة يشعل قلبَها صوتُك؟ أأخبرك بأمر؟ لم آتِ إلى هنا لأبحث عن الحبّ، كان لديّ غاية أسعى إليها، وأدرك الآن أن غايتي لم تكن سوى أن أتورط بك، وأن أتوه ما بين ما أريد وما لا أريد. حين أفصحت لي عن الحبّ الذي يسكنك تجاهي، بكيتُ طويلًا، رُبما لأنك كنت صادقًا جدًا، لم تتحدث لي كما يفعل المولعون بالعشق.. تحدثت إليّ كرجلٍ يضع قلبه بين كفيّه ويقول لي: أتاني حبّكِ؛ فماذا يفترض بي أن أفعل؟ قد هدمت سدًا بنيتُه بيني وبين كلّ ما يأتي به الحبّ؛ فصرتُ أتبعك بروحي، وبقلبي، وبأغنياتي التي أشعر أنها تقول لي ما في صدرك من كلام. أليس هذا كافيًا لنبقى معًا؟

أردتُ أن أبكي حينها. لم أستطع. تجمدتُ مكاني، ولم أرغب لتلك اللحظة أن تنتهي.

telegram @ktabpdf

أصبح لدي أسرارٌ صغيرة أخبئها في قلبي: كلمات تتعثرين في نطقها، أحفظها لأضحكِ عليها كلما شعرتِ بالضجر. أغانٍ لا تملين من سماعها، أحفظها على هاتفي، وعندما تمركِ لحظات سيئة أسمعكِ إياها. تقاومين أحيانًا، لكن سرعان ما يجرفك جزء تحبينه فيها إلى كلماتهِ. ليس لديكِ أفضل صوت في العالم كما هي عيناكِ.. لديك صوت يعبر قلبي. ودعاء أقرؤه سرًا في داخلي لئلا يحول بيننا غياب، ولا يتنبه لحبنا حاسد.

وخوف واحد مستمر: أن ننتهي دون رغبةٍ بذلك. أن يسير بنا القدر إلى حدّ فاصل، حيث نقول: كان بيننا حكاية، وددنا أن نكملها.

قلت لكِ ذات مرة:

- أخبريني عن عائلتك.

- ماذا ترغب بأن تعرف عنهم؟

- أي شيء. فقط أخبريني عنهم.

- أممم، لدي ثلاث أخوات، وأخ كبير. أنا الأخيرة في الترتيب. أبي رحل إلى ربهِ قبل عامين. أمي لحقته بعد أسبوعين فقط. كانت تتحدث إلي قبل أن تنام إلى الأبد،

قالت: الحياة ليست مكانًا نعيش فيه، الحياة شخص نمضي معه أينما ذهب. اختاري حياتك بشكلٍ صحيح لئلا تحين لحظة الوداع فتدركين حينها أن عمركِ قد فنى دون أن تعيشيهِ كما ينبغي.

- هل تشعرين بأني «حياتك»؟ كما قالت أمك؟

- لا، ليس لأنك لا تستحق. لكن لا أرى أن هذا كلام صحيح. رُبما كان من شدة اشتياقها لأبي. رُبما لأن العمر الذي قضوه معًا أطول مما قضيناه نحن في الحياة ذاتها.

- رُبما كانت محقة!

- رُبما...

ترددت في مواصلة جلسة الأسئلة التي تعيدنا للبدايات دائمًا. فضول ما زال ينتابني تجاهكِ. سألتكِ بخوف:

- أتدرين يا ساره، أستغرب حقيقةً من أمركِ. أعني معظم الفتيات هنا يكن بصحبة أحدٍ من عائلتهن. لكنكِ جئتِ وحدكِ. ولا أذكر أنكِ قد قلتِ لي بأن أحدًا من الوطن ينوي أن ينضم إليكِ هنا. على أقل تقدير، أحد ما يسأل عنكِ!

- لا تخف، ليس لي أحد ليقطع مسافات طويلة إلى هنا من أجلي. وأنا هنا وحيدةً؛ لأن كل من تبقى من عائلتي مشغول بنفسه. إخوتي ما زلن في سباق الذرية، ما إن يضعن حملهن

telegram @ktabpdf

حتى تتكور بطونهن مجددًا. اهتماماتهن لا تتجاوز ملء بطاقة العائلة بأسماء صغارهن، والمحافظة على أزواجهن لئلا يضعوا امرأة جديدة فوق أسمائهن على ذات البطاقة. أما أخي؛ فلم يكن لديه مانع في سفري، بل وجدها فرصة لإدارة ما تبقى لي من تركة أبي. كان سعيدًا حين أخبرته برغبتي بالسفر.. ودعني في المطار قائلًا: لا تخافي من الفشل، ولكن لا تعودي دون أن تحققي طموحكِ. أرغب بأن أصدق أنه كان يتمنى لي الخير حينها، لكني أعرفه جيدًا، لا يهمه سوى زيادة الخانات البنكية في رصيده. كان هذا في وقتٍ مضى، الآن هو متورط بفشله، بل كلنا متورطون به.. أرجوك، لا تذكرني به.

- يبدو أننا متشابهان جدًا يا عزيزتي. لدي أيضًا أخ أكبر، لا يطمح لشيء سوى ثقة أبي في إدارة أعماله. حاول جاهدًا أن يقنعه بأني لا أصلح للتجارة، ونجح في ذلك. لكني مدينٌ له.

- بماذا؟

- بأشياء سأخبركِ عنها مستقبلًا.

- ماذا عن أمك؟

- أمي رحلت عن الحياة قبل أن أصل إلى هنا. كانت شعلة النور الوحيدة في قلبي، وانطفأت أسرع مما ينبغي. لم يرعبني أنها ترحل وتتركني وحيدًا على هذه الأرض، فقط الطريقة

مكتبة الرمحي أحمد

التـي تجـاوز بهـا أبي حزنـه عليهـا هي مـا أخافتني!

– ماذا حدث؟ إن كنت لا تمانع سؤالي.

– بدلهـا بواحـدة جديـدة. زوجـة تصغـره بعشـرين عامًـا، في الأسـبوع الثالـث مـن وفاتها. سـألته: أليـس في قلبك لها شـيء؟ لا يعقـل أن تتـزوج بامـرأة أخـرى بعـد أن توفيـت المـرأة التـي كرسـت روحهـا وجسـدها لخدمتـك! أجابنـي: تمامًا كمـا قلت، ليـس هنـاك روح وجسـد يخدمانـي الآن.

*

telegram @ktabpdf

(٤)

عنوان الحياة، التجارب التي تخوضها: انتصاراتك، خساراتك، اللحظات الصغيرة التي تستحيل إلى ذكرى دائمة لا يمسسها سوط النسيان. تبقي في داخلك كحجارةٍ تثقل صدرك، أو كسحابةٍ تمطرك بالحنين.

أتدرين أيتها المجنونة السمراء أني كنتُ أعيش الحياة قبلكِ بلا ألوانٍ تزين صورها. ظننت أنها هكذا وعليّ أن أتقبلها كما هي. وحدكِ كنتِ الضوء الذي أظهر لي وجهها الحقيقي، ملونة ومليئة بالحب.

حين حلّت الإجازة الصيفية، كنتُ قلقًا من أن تنوي العودة إلى الوطن. أن تتركيني هنا وحيدًا أنتظر عودتك.

- لا! لن أذهب. سأبقى هنا.

- عظيم!

قررنا أن نقضي إجازتنا في سفرٍ طويل. سنحزم أمتعتنا ونغادر هذا المنزل. لا نعرف إلى أين الوجهة، المهم أن نكون معًا

مكتبة الرمحي أحمد

قُلتِ لي:

- ينفع نكون لحالنا؟

- وإيش المشكلة؟

- الشيطان ثالثنا.

لم أتضايق من ظنكِ بي؛ فهذا تمامًا ما سيحدث!

كنتِ تدركين تمامًا مدى غوايتكِ. الأشياء التي تفعلينها خلسةً حينما لا أكون في المنزل تقول هذا أيضًا. ذات مرة أخبرني أنثوني أنكِ نزلتِ إلى المسبح، في الجهة الخلفية للمنزل. لم أصدقه.. قلت له أرسل لي صورة! رد عليّ: كم تبدو مغفلًا بطلبك هذا! تعال وانظر بنفسك.

تملصت من محاضرتي، وسريعًا عدتُ إلى المنزل. لم تكن رغبتي برؤيتكِ في هكذا حالة، أردت أن أعرف إلى أي مدى هي جرأتكِ. قابلت أنثوني حين وصلت، كان يضحك على قدومي السريع. سألته: هل هي بالمسبح؟ أجابني بنعم. حاولت الدخول عبر الباب الخلفي. الباب الوحيد المفضي إلى المسبح، لكنه كان مقفلًا. نظرت إلى أنثوني مستغربًا، وقال: لن تستطيع الدخول، طلبت مني المفتاح. قالت أنها تحتاج إلى بعض الخصوصية. أيها المغفل! لا تخف، أنا أيضًا لم أنظر لشيء! هاهاها!

telegram @ktabpdf

بعد دقائق سمعت صوت الباب يفتح، اختلست النظر من وراء باب غرفتي. ولم أرَ سوى فتاة يستقر فوقها أكوام من المناشف!

غريبة أنتِ يا ساره، مرةً أشعر بأنكِ عصية على كل شيء.. محاولاتي في خطف قبلة من ثغرك تنتهي بوداعٍ غريب.. اللحظات التي أحاول أن أضع كفي في كفكِ كلما ذهبنا في سرِّنا معًا تنتهي بأعذار مصطنعة: سأدخل إلى هذا المحل، تنتظرني هنا؟

وفي أحيان أخرى، أراكِ امرأة من نار، لا سلام في نحرِ صدركِ الذي يقول لي دائمًا: تعال! ولا بردَ يأخذني حينما أحترق في أحضانكِ كشمعةٍ تقاوم اللهب لكي لا تنتهي قبل أن تكتفي منكِ! تعبث بكِ أغنياتك، تجركِ إلى كلماتها، تتلبسين دور البطلة، وتقتحمين غرفتي على غفلةٍ مني.. أسألكِ: ماذا! لا تنطقين. يتدلى من خلف خصلات شعركِ سلك السماعات الصوتية، يصلني النغم الذي يدوي في أذنيكِ.. تمدين يديكِ نحوي.. أجيء إليك؛ فتغرقين في حضني دون كلام. تنتهي الأغنية، وينتهي دوركِ فيها. تعودين للوراء، تشيرين بيدك بأنكِ مجنونة ولا ملامة عليك. ترحلين ضاحكة وأبقى مندهشًا من عطركِ المتغلغل في ثيابي.

مكتبة الرمحي أحمد

- إذا؟ نسافر أو نبقى هنا تحت حراسة أنثوني؟

- نسافر .. زينب وزوجها سيأتيان معنا. سبق أن اتفقت معها على ذلك.

- بنت .....

- بنت إيش؟

- بنت قلبي.

*

telegram @ktabpdf

بعد ثلاثة أيام، سافرنا برًا نحو مدينة الشاطئ الذهبي كما تسمى «قولد كوست». كنت أقود وأنتِ بجانبي تقرأين كتابًا ما. مررنا في الطريق على مزرعة التوليب التي عرفتها قبل أن تصلي إلى هنا/ إليّ، بساعات قليلة. توقفنا عندها، وحين رأتني البائعة؛ تعرفت عليّ سريعًا. سألتني: ماذا فعلت بالوردة السابقة؟ نظرتُ إليك مبتسمًا، ومن ثم أجبتها: بدلتها بوردةٍ أخرى. هذه التي تجلس بجانبي. ردت عليّ: اختيارٌ جيد!

لم تفهمي شيئًا حينها. سألتني عن قصة الوردة السابقة، ووعدتكِ أن أخبركِ عنها لاحقًا، وها أنا أفعل الآن. رُبما ظننتِ أني أهديتها لواحدةٍ أخرى! ناسبني هذا الظن، لأنه ببساطة يقول إن هناك نارَ غيرة تحرق كلما شعرتِ بي أحيد عن طريقكِ.. تخافين أن يكون هناك شخص آخر في حياتي. والآن أدرك أن تلك الوردة لم تكن سوى رسالة سماوية بأن الحياة ستصالحني، وأني كنتُ في اليوم المنشود الذي أخبرتني عنه أمي/ اليوم الذي وجدتكِ فيه!

ابتعتُ لكِ وردة توليب واحدة. أعطيتكِ إياها وشكرتني. أما زينب؛ فتعكر مزاجها من زوجها سِنان. قالت له بلهجتها العراقية الأصيلة: شكد بخيل!

حين وصلنا إلى الفندق، كانت الشمس ما تزال تحاول

مكتبة الرمحي أحمد

الهروب من السماء. دلف كلٌ منا إلى غرفته على أن نخرج معًا بعد مغيب الشمس. اتصلتِ بي وأخبرتني أن آتي عندكِ: المنظر هنا يجنن! تعال!

كانت إطلالة الغرفة على البحر هي ما أعجبك. وقفت بجانبكِ عند الجدار الزجاجي. العالم يبدو صغيرًا جدًا من تحتنا. نساء متناثرات على الرمل الذهبي. رجالٌ يركبون الأمواج، أطفال يعبثون بالتراب. كل ذلك كان واضحًا وصغيرًا. قلتِ لي: أرغب بالنزول إلى البحر.

- الحين؟!

- لا، بكرا يمكن.

- وإيش ناويه تلبسين؟ «مايو إسلامي»؟!

- لا طبعًا!

- أجل؟!

- بكرا تشوف. الحين تفضل على غرفتك. الظاهر الشيطان قرب يوصل.

- أجل ننتظر شوي بعد.

- غسان!

خرجتُ ضاحكًا عليكِ، مترقبًا للغد، حيث البحر.. وأنتِ.

*

telegram @ktabpdf

كل الأمور الجيدة لها وقت صلاحية، تتعفن بعد ذلك. الذكرى أيضًا. ليس في رأسي ذكرى واحدة لم تفقد صلاحيتها. ما عدا الأشياء التي تتعلق بكِ. كأن الله خلقها لي، كأنها الفيلم الوحيد الذي يناسبني في كل وقت، لم تكن للتسلية قط، إنها الذراع التي أتمسك بها لأعود إلى نفسي. إلى روحٍ مطمئنة لم أدرك أنها تسكنني حتى وجدتكِ.

أفكر أحيانًا لو أنكِ كنتِ حبي الأول.. لو أن الزمان يعود، أقتص منه ما كان يفسدني، ما ينخر روحي عفنًا وقسوة. أختار أبًا جيد، أعيد أمي إلى حياتي، أخبرها بأن الله فعل ما قالته لي: أعطاني ما أستحق أن أحبه. أتراجع عن كلمة «أحبك» التي نطقتها في محاولة أخيرة لإنقاذ زواجي الأول من «نادية». أمحي نادية من حياتي. أجعلكِ مكانها، وأقول لكِ أحبكِ وحدك، ولا أعرف أحدًا يسكن قلبي غيرك.

أتعلق بكِ يومًا بعد يوم، ما تضعينه فيّ يكفي لأن يصارعني عليه الرجال كلهم لينوؤوا بحمله!

قلتُ لكِ ذات مرة:

- ساره، لا أعرف إلى أين كنت سأنتهي لو لم أجدكِ. ولا أعرف كيف سأنتهي إن رحلتِ يومًا عني.

- الله لن ينساك يا غسان.

مكتبة الرمحي أحمد

– أثـق باللـه، وأحبـه. لكنـي أخـاف الناس يـا سـاره. ليس لي الآن سـواكِ. أرجـوكِ حيـن تنويـن الرحيـل... ضعـي لي سـمًا أو اقتليني!

– مجنون أنت والله.

صمتٌ لبرهة، ثم نظرتِ إليّ وقلتِ:

– دعنـا نتفـق الآن إذًا.. لا تكرهني ولا تبدلني. وسـتجدني هنا معـك، مهما حصـل، ومهما باعدت بيننـا الحياة، سـتجدني دائمًا هنـا. لـن أقوى أن أغـادرك يا غسـان. لا أراك حبًا فقـط، إنك الآن حيـاة! ولا أريـد حيـاةً أخـرى وإن كانت أفضل. إنـي أكتفي بك.

*

telegram @ktabpdf

كان من الغريب إصرارك على النزول إلى البحر. قلتُ لكِ:

- البحر مليان بنات!

- يعني؟

- العين تهوى الجمال.

- حاول أنت بس!

لم تنفع محاولاتي في إثارة غيرتك. عنيدة حين تأخذين قراراتك.

- اسبقني، دقائق فقط وأكون عندك.

جلستُ على الشاطئ أنتظرك. كنت أحدق في البحر. يهيج تارة ويهدأ تارة أخرى. كأنه قلبي حينما يراكِ. وقفتُ وسرتُ نحوه. شعرت ببرودتهِ على قدمي. خلعتُ قميصي ومشيتُ إلى داخله. كانت أنفاسي تتسارع كلما توغلت فيّ برودة مائه. أردت أن أغوص فيه دفعةً واحدة. وقبل أن أحاول، جاء صوتكِ من بعيد.

- غسان. انتظرني.

ألتفت إلى الوراء. شعرتُ بقلبي ينقبض. ثم يثور كموجة غير متوقعة. حدقتُ فيكِ من البعيد. ظننتُ أني أنظر إلى الشخص الخطأ. لكن قلبي لا يكذب. اقتربتِ مني، صار لون ساقيكِ أوضح الآن! عيناكِ تدفئان البحر، والشمس ترغب

مكتبة الرمحي أحمد

بالغـروب علـى النحـر الغـاوي فـوق نهديكِ.

إنهـا المـرة الأولـى التـي أراكِ فيهـا فاتنـة حـدّ الذوبـان. كلما اقتربـتِ منـي وجـدتُ أني أغـرق فـي تفاصيلك، ولم يكـن البحر بعمقهـا، أو بجمالهـا. كتفـاكِ الصغيرتـان تختبئـان خلف شـعركِ الطويـل حيـث ينتهـي بـهِ المطـاف متكئًا علـى جانبي سـرتكِ.

لـو تعلميـن يـا عزيزتـي حينـذاك مـا يمكـن لغيمـةٍ مثلـكِ أن تفعـل برجـل جـاف كصحـراء شاسـعة كأنـا!

حين وصلتِ إلي كنتُ سارحًا بكِ..

لـم أفهـم مـا كنـتِ تقولينـه.. أخـذتِ بيدي وسـرتِ بـي نحو العمـق. ابتسـامتك لـم تفارقـك، وقلبي لـم يهـدأ للحظة.

هنـاك حيـث غمرنـا المـاء إلـى أعناقنـا، توقفنـا. نظـرتِ إلـيّ وأنـتِ تحاوليـن الوقـوف علـى قدميّ لئلا يلتهمـكِ هـذا البحر، ثـم قلتِ:

- ماذا!

لم أنبس ببنت شفة.. جذبتكِ نحوي...

وابتلعتنا موجةٌ صغيرة.

*

telegram @ktabpdf

(٥)

أتـردد بيـن الحيـن والآخـر فـي مجـاراة جنونـكِ. لـم تكوني فاسـدة لأخـاف منـكِ.. كنـتِ عظيمـة فـي قلبـي لأخـاف عليكِ. وبقـدر مـا أردتُ أن أنعـم بـكِ روحًـا وجسـدًا، كنـتُ حـذرًا لئلا تصبـح علاقتنـا مؤقتة.

زينـب وماجـد غادرانـا فـي اليـوم الثالـث. قـال ماجـد أنـه يتوجـب عليـه العـودة إلـى المدينـة ليلتقي مرشـده الطلابـي قبل أن يسـافر. زينـب كانـت تقول كلامًـا آخر: لقد اسـتاء ممـا يدفعه لهـذا الفندق.

خرجـتُ معـكِ يومهـا، أخبرتـكِ أننـا سـنذهب للسـماء، لـم تصدقـي. وحين وصلنـا إلى المكان المنشـود، كانـت الطائرة في انتظارنا.

- مجنون أنت؟! غسان لا أستطيع أن أفعل هذا.

- يا خوافة، كلها قفزة واحدة. جربي ولن تندمي أبدًا.

- لا، ولا في الأحلام.

- إذًا سأذهب لوحدي.. انتظريني هنا.

مكتبة الرمحي أحمد

- غسان! أرجوك لا تذهب. إن كنت تحبني لا تذهب!

- أحبك، ولكني سأقفز. إن لم أهبط بسلام فسأزورك في أحلامك!

- إن ذهبت؛ فلا تعد.

- متأكدة؟

- إيه!

كان المظلي المرافق يحكم ربط الأحزمة عليّ وأنا أنظر إليكِ، كنتِ فعلاً خائفة. وجهكِ قلق، وتصلني نبضات قلبكِ برجاءٍ أن أعدل عما أنوي فعله. اقتربت منكِ، قبلتُ وجنتكِ، وأخبرتكِ أني سأعود، وستكونين هنا بانتظاري.

أقعلت الطائرة، تجاوزت نسيج السحاب، فُتحِ بابها الصغير، اقترب المظلي مني وأحكم ربط أحزمته بحزامي. قال: مستعد؟ أجبته: مستعد!

في لحظةٍ واحدة دفعني إلى الخارج. أحسست بالهواء يدخل رئتيّ. كنت أصرخ رغم أن لا خوف كان في داخلي. شعرتُ أني نقطة صغيرة جدًا على خارطة السماء، وأن الكون أكبر من أن يكترث لي!

بعد دقائق كانت قدماي على الأرض، ترجفان بلا سبب. أخذتُ نفسًا ثم بحثتُ عنكِ حيث تركتكِ، ولم أجدكِ. سألت

telegram @ktabpdf

عنكِ وقالوا لي: رحلت. نزعت الأحزمة التي حولي سريعًا، ركضتُ متوجهًا إلى السيارة. حتى وجدتكِ جالسةً على مقعدٍ خشبي أمام البوابة. تدسين رأسكِ في حضنكِ.

«ساره!» صرختُ عليكِ من بعيد. لم تتحركي.. اقتربت منكِ، وضعتُ يدي على كتفكِ وسألتكِ:

- ما بكِ؟!

- أكرهك، والله أكرهك!

فهمتِ منكِ خوفكِ عليّ. قلتِ لي:

- متخيل أني أشوفك تطيح من السماء. ألف فكرة وفكرة جات في بالي. حسيت أنك بتروح مني.

جلستُ بجانبكِ، وضممتكِ نحو صدري. حينئذ لم تكن في بالي سوى فكرة واحدة: أرغب بقضاء ما تبقى من عمري معكِ.

*

عدنا إلى الفندق متأخرين ذلك اليوم. كنا قد شاهدنا فيلمًا في السينما، بعد أن تناولنا العشاء. ودعنا بعضنا في المصعد. أخبرتكِ بأني سأنام على أن نستيقظ مبكرًا في الصباح لنعود إلى مدينتنا.

مكتبة الرمحي أحمد

تمددت على فراشي في انتظار النوم أن يأتي. مرّت نصف ساعة، لم أنم. مددت يدي وأمسكت بهاتفي. كانت هناك رسالة منكِ، وصلت قبل سبع دقائق ولم أنتبه لها. فتحتها، صورة حوض الماء ممتلئ تتصاعد منه ألسنة البخار.

كتبتِ تحتها: هل ترغب بالمجيء؟ تركتُ لك الباب مفتوحًا.

أردت أن أقول «لا». أن أتوقف إلى هذا الحدّ، حيث لا تستحيل بنا الأمور إلى أقدار نخافها.

أعلم أني لم أحبكِ بطريقةٍ لائقة فيما سبق، كان أكثر ما يعجبني فيكِ هو مظهركِ، الجمال الذي تحملينه معكِ في كل وقت. صوتكِ أحيانًا حين تغنين، ورغم أني لا أفهم بالموسيقى شيئًا، كان صوتكِ أجمل ما سمعت!

خفت أن أفسدكِ، أن تصبح أيامنا القادمة مجرد جسدين يقضيان حاجتهما. تمامًا كم شعرتُ مع «نادية». كانت تلتصق بي أحيانًا حينما أنام. أشعر بجسدها يشتعل. وما إن تنطفئ؛ حتى تتركني وحيدًا أقضي ليلتي متسائلاً: ماذا حدث!

رأيت كيف لرجلٍ أن ينهزم رغم انتصاره، أن يتوه في بحر الأسئلة، كيف ولماذا، هل كنتُ السبب أم أني لستُ كافيًا!

حتى تموت الرغبة فيهِ وهو في أشدّ حاجتهِ إليها.

telegram @ktabpdf

وأفهم الآن كيف له أن يحاول الوقوف من جديدٍ بعد هذا الارتطام الحاد، الذي لم يكن هناك أحد لينشله منه؛ فبقي في القاع منتظرًا حتى ابتلعته عتمة الروح. يتلمّسُ جرحه كلمّا حاول النهوض، لكنه جرحٌ عصي على البراء.. كلما حاول مداواته.. شعر بيدٍ خفيةٍ تضغط فوقه.

لكنكِ لستِ مثلها، أعرف هذا. لا يمكن لامرأةٍ أن تبكي على رجل لا تحبه، وفعلتِ أنتِ هذا اليوم.

ضعيف المقاومة أنا أمامكِ، لا ينفعني قلبٌ مجروح، ولا ذكريات سيئة. أميلُ كأني غصن هزيل يتأرجح على رياحكِ.. وأمضي في طريقكِ، ولا أملُ المسافة وإن طالت.

قررتُ الذهاب، أو الغرق معكِ. صوت الضمير في داخلي يتلاشى، وحسبي أنكِ مالا أندم على اللحاق بهِ.

هنُاك، حيث لم يكن لنا سوى الغرق، تحسستُ شعركِ المبلل، رحتُ أداعبه بأناملي، رائحته تنفذ لأنفي، التصقت بكِ أكثر.. وضعتِ رأسكِ على كتفي، كنتِ تحاولين معرفة إلى أين أنظر، التقت عينانا، ثم قلتِ: قبلني.

*

مكتبة الرمحي أحمد

(٦)

كنتُ مخطئًا حين اعتقدت أن «علي» سيتراجع عنكِ بسهولة.

رأيتكِ معه في الحرم الجامعي ذات مرة. ظننتُ أنكِ ستتملصين منه، رُبما التقيتما مصادفة، وستودعينه الآن. توقفت أنظر إليكما من بعيد. الشجرة العملاقة أمامي كافية لئلا تشعرا بي. أحسست حينذاك أني أبتلع الدقائق بفمٍ جاف، تجرحني ولكني أمني النفس بأن تنتصري لي في نهاية المطاف.

ولا أعلم كيف أصف خيبة أملي بكِ حين رأيتكِ تذهبين معه!

لا يمكن بأن يكون لقاؤكم لغرض دراسي.. علي في سنته الأخيرة ويدرس تخصصًا مختلفًا عنكِ.

كان يصلني صدى ضحكاتكم. تبدين سعيدة وهو بجانبك. يحاول أن يضحككِ مرات، ومن ثم يصمت، يخرج هاتفه ويريكِ شيئًا عليه، ومن ثم تعودون لمواصلة حديث لا أفهمه.

أصابني تعب وأنا أراكِ معه، لا يهمني من تصاحبين، لكن

telegram @ktabpdf

كسرني أنكِ تعلمين أنه يتعبني أن يكون هو معك!

حين عدتِ إلى المنزل؛ سألتك عن يومك. أجبتِ باختصار: «كان جيدًا». فلم أشأ أن أتحدث معكِ عمّا رأيته.

في الأيام القليلة التي تلت لقاءكِ به، كان صوت الأغنيات القادم من غرفتكِ ينقطع لدقائق طويلة ومن ثم يعود. حاولت في إحدى المرات أن أدخل عليكِ الغرفة وأتحرى عنكِ. لكن بابكِ كان مقفلًا. عدتُ إلى غرفتي، وبعد دقائق أتيتِ أنتِ. سألتكِ عمّا كنتِ تفعلين، أخبرتني أنكِ تكلمين أحدهم.

- مين؟

- صديقة لي.

- وصديقتك مالها اسم؟

- عفاف.

- عفاف!

- إيه.. تعرفها؟

- لا.

ومضيتِ عائدة إلى غرفتك.

أحسستُ بأنكِ تعلمين عمّا حدث بيني وبين عفاف في الماضي. قلتُ في نفسي: أحسن الظن، رُبما أنه تشابه أسماء، أو أنها تعرفت عليها فعلًا. قد تخبركِ عن ماضيّ معها، وقد لا

مكتبة الرمحي أحمد

تجرؤ على البوح.

عفاف فتاة لطيفة، هكذا أعرفها، ولن تحاول كسري. التقيتُ بها في مكتبي في الجامعة. كانت في عامها الأول، ما تزال في معهد اللغة. جاءت تبحث عن المشرفة الخاصة بها، وكانت إنجليزيتها ضعيفة جدًا إلى درجة أنها لم تستطع أن تقرأ الأسماء المعلقة أمام كل مكتب. حينذاك كنت أحاول أن أنهي بحثًا لمادة من مواد الماجستير. طرقت الباب؛ فأذنت لها بالدخول. حين رأتني حاولت أن تسأل أين تجد «روز ميلر»، أجبتها ولكنها لم تفهم. شعرتُ بذلك من عينيها. أعدت الكلام عليها بالعربية، فاستهل وجهها، وقالت: لم أعتقد أنك عربي!

ومنذ ذلك الحين وهي تزورني من فترةٍ لأخرى، تلقي التحية عليّ وتضع أمامي صحنًا من الحلويات العربية، ثم تنصرف. ذات مرة قالت بأنها أعدت هذه الحلويات لي فقط، وفي بادرة لرد المعروف، دعوتها للجلوس والحديث في مكتبي

ثرثارة كبيرة هي، تأكل الكلمات من شدة ثرثرتها. متوسطة الجمال، ساقاها طويلتان، وتحاول دائمًا الكشف عنهما كلما زارتني. لها شعر قصير لونه أحمر، لا يناسب وجهها النحيف.

telegram @ktabpdf

وحيدة هي أيضًا هنا، جاءت بمنحة حكومية من ليبيا.

لم تزعجني زياراتها التي أصبحت متقاربة أكثر مما يجب، أحيانًا كنتُ أقفل الباب وأطفئ أنوار مكتبي حتى تظن ألا أحد هنا. تطرق الباب ولا أجيبها، ومن ثم ترحل. وفي أحيان أخرى كنتُ أجالسها حين أكون في مزاجٍ جيد يسمح لي بتحمل حكاياتها الكثيرة.

لا أفهم سر انجذابي لها في بعض الأوقات. قد حاولت إغوائي حتى سمحت لها بذلك. لقاءاتنا القصيرة في المكتب أصبحت تأخذ وقتًا أطول، حتى دعتني في إحدى المرات لكوب قهوة. سرعان ما شعرت أنها تمكنت مني. صارت تلعب دور العاشقة وتنتظر مني أن أتقن دوري في المقابل. ترسل لي قصائد عن الحب، لا أفهمها ولا أعرف كيف تقرأ. ومرات تصحبني معها إلى التسوق. وقتها، تتعمد أن تقيس الملابس الداخلية أمامي. تضعها على خصرها، من فوق ملابسها، وتستشيرني: مناسب؟

أضجر من وجودها أحياناً؛ فألقي عليها كلماتٍ قاسية. لا يؤثر ذلك بها؛ فهي من النوع المنصاع إلى الرجل وجبروته. تغيب يومين، ومن ثم ترسل لي قصائد جديدة.

دعوتها مرةً لتزورني في المنزل. كان أنثوني يقيم حلفة

مكتبة الرمحي أحمد

«طلاق»! حينها كان قد انفصل عن زوجته/ لورا، وكان سعيدًا بذلك.

الغريب أن عفاف جلبت معها ملابس مبيت! كانت حمقاء واثقة من أن هذه الليلة هي ليلتنا الكبيرة! سايرتها في رغبتها في المكوث عندي، جلبت لها فراشًا إضافيًا، ووضعته على الأرض بجانبي. نظرتُ إليها، وقلت: هذا فراشك!

تمسكت بي حتى النهاية، شعرتُ بأنها بدأت تعجبني، مطيعة وتحاول ما في وسعها لتنال الرضى مني. قلت: قد يكون هذا ما تحتاج إليه! امرأة تتبعك أينما ذهبت، امرأة قد تقفز إلى النار إن طلبت منها دون أن تشتكي.

حتى دخلتِ أنتِ حياتي.

ساره، لا تعلمين ما تركينهِ بي من أملٍ وحبّ. أذكركِ في دعائي، ولم يحدث أن تمنيت شيئًا لا تكوني معي فيه، وإن سهوتُ، بحثتُ عنكِ حيث أجد إجابةً لكل أمنياتي.

من غيركِ حتى عندما أكرهه.. أحبّه؟ كأني ذاك الذي لا ذاكرة له سوى قلب يخبره بأنه ينتمي إليكِ. مذ وجدتكِ، نسيت كل إنسانٍ كان في حياتي، واكتفيتُ بكِ صحبةً وأحبة. لم يكن غيابهم عن حياتي خسارة. ظني أني فزتُ بما هو لروحي أصدق.. وللقلب ألطف.

telegram @ktabpdf

يتلاشى كل حزن يجثو على صدري؛ كلما وقعت عيناي على ثغركِ الباسم.

قد صنعكِ الله لأن تكوني في قلبي؛ فباسم الله فتحتُ لكِ أبوابهُ. هذه جنتكِ، استقري فيها بسلام، لا شريك لكِ اليوم.

*

مكتبة الرمحي أحمد

لديك عادة غريبة حين تكذبين. تعبثين بشعركِ بحركاتٍ دائرية تقوم بها أصابعكِ، وكأنكِ في حالة لا إدراك لما تقولينه. لا تنظرين إلى عينيّ كما تفعلين دائمًا، تحاولين الهرب بهما إلى مواضع لا نفع من أن تحدقي فيها. ولم أركِ في هذه الحالة سوى مرتين.

الأولى عندما سألتكِ إذا ما كانت لديك علاقات سابقة جادة.

كان ذلك في أولى أيامنا معًا. أجبتِ وأنت تعبثين بخصلةٍ من شعرك، تتموج على أصبعكِ حتى تشعرين بالألم، ومن ثم تتركينها وتبحثين عن واحدةٍ أخرى. قلتِ لي حينذاك: لا شيء حقيقي، ما عدا بضعة شباب كنت أتسلى معهم ليقدموا لي خدماتهم: سداد فاتورة الجوال، إكمال مبلغٍ ناقص لأشتري بهِ أشياء أرغب بها، أو لأضيع وقتي على الهاتف حينما لا يكون معي أحد في المنزل.

لعبتُ دور المصدق لكِ، ولم أشأ أن أبحث عن إجاباتٍ لأسئلةٍ قد توتر علاقتنا.

الثانية: عندما سألتكِ تلك الليلة أين كنتِ في الصباح.

قلتِ إنكِ في الجامعة، لكني لم أرَكِ هناك. بحثتُ عنكِ

telegram @ktabpdf

في كل مكان ولم أجدكِ. كنت على قلقٍ.. أن تكوني مع علي مرةً أخرى! أكدتِ لي أنكِ كنتِ بالجامعة، ومنها عدتِ إلى المنزل مباشرة.

ابتعلتُ كذبتكِ وقلت قد أكون خاطئًا بشأن عادة كذبك الغريبة.

كل حبيبٍ يكذب على من يحبّه هو منافق، يختار طريقًا مظلمًا بدلاً من كلمة صادقة تنهي شقاءه.

حاولت أن أصدقكِ إلى أن جاء اليوم الذي قطع شكي باليقين. كنتُ حينها أسير وحيدًا في شارع «رفثن» حيث قلب المدينة والمحلات التجارية المتكدسة على جانبيه. أردت أن أبتاع لكِ سماعة جديدة بدلاً من تلك التي أصبحت تتعب أذنيكِ من صغر حجمها. مررتُ بجانب المطعم التركي الوحيد بالمدينة، ولا أعلم لماذا كتب لي القدر الالتفات إلى طاولاته.

هناك في الزاوية القريبة من الجدار الزجاجي، كنتِ تجلسين أمام علي. وقعت عيني على عينكِ مباشرة، شعرتُ بكِ تختنقين حينها، وشعرتُ بقلبي ينزف من جرحٍ تسببتِ به!

مكتبة الرمحي أحمد

لا تتعبنا الجروح يا عزيزتي، ما يتعب هو ما يتعلق بها من مشهد، من وجوه، والألم الذي يبقى ساكنًا بنا وإن برئت تلك الجروح، وليس هنالك جرح يختفي إلى الأبد.. إنه يستحيل إلى ندبة تدلنا دائمًا إلى الأوجاع.

كل ما أردتهُ معكِ هو صفحة بيضاء لا يشوهها شيء، وسلامٌ أبدي للندبات التي نسيتُ أنها تملأ صدري مذ أصبحتُ معكِ.

واصلت السير، ولكن بلا وجهة. لحقتِ بي راكضةً، كنتِ تصرخين باسمي دون توقف، حتى أدركتِ خطواتي.

- غسان، بالله عليك توقف.

واصلت السير.

- دعني أشرح لك على الأقل. عطني فرصة!

لم أكترث لكل ما قد تقولينه. تابعت طريقي واستمريتِ في المحاولة.

- ما بيننا شي والله. أدري إنك تكرهه، وأدري إنك متضايق لأني معه. بس عندي سبب!

وددتُ لو أني أصرخ أمامك، أقول: توقفي، ليس هناك سبب مقنع لأن تفعلي هذا.

telegram @ktabpdf

لكني نظرتُ إلى عينيكِ التي أحب، ثم عرفتُ أني لا أستطيع أن أقسو عليهما.

لم يربح أيٌّ منا حينذاك، كنا خاسرين في معركة واحدة! بكيتِ وتوسلتِ، ولم أكن قادرًا على الغفران.

توقفتِ مكانكِ، بينما كنتُ أبتعد، ضممتِ رأسكِ بين يديكِ، وكان قلبي يبكي معكِ.

عندما قطعت مسافة كافية، كانت بي رغبة بالعودة، بأن أضمكِ نحوي، وننسى كل ما حدث كما لو أنه لم يحدث. لا أريد أن أستمع إلى عذر، كل ما وددته أن أكون معكِ وينتهي هذا الكابوس المزعج. مؤمن أنْ ليس هناك شيء يحول بين المرء ومن يحب.. من يبتعد فقد اختار ذلك بنفسه، أما من يرغب بالقرب؛ فلا يوقفه أحدٌ عن ذلك، وإن كان قربه ألم.

قررت العودة إليك، التفت إلى الوراء ناحيتكِ، وحينها شيءٌ ما قبض على قلبي..

عندما رأيتهُ واقفًا بجانبكِ، يطبطب على كتفكِ.

*

مكتبة الرمحي أحمد

(٧)

لم تكوني قليلةً في قلبي لأتنازل عنكِ.

لـم يحـدث أن تخيلـتُ يومًـا لا تكوني فيـه، كنتُ أغـرقِ فيكِ يومًـا بعـد يـوم، وأصلـي لـربّ السـماء أن يحفظـكِ فـي قلبـي. متعـب أن تجد نفسـك مدفونًا فـي الغياب بلا إرادة، ومؤسـف أن يكـون الوحيـد الـذي تثـق بـهِ هـو أول الناس لـك خيانة.

غابـت الشـمس يومهـا ولم تكوني قـد عدتِ إلـى المنزل بعد. سـألني عنـكِ أنثونـي، أجبتـه بأنـكِ فـي الطريـق. هكـذا تمنيت. ظللـتُ أنتظـركِ حتـى انتصف الليـل، ولم تعـودي. كانت إشـارةً واضحـة بأنـي خسـرتكِ، بأنـه تغلـب عليّ واسـتطاع أن ينتشـلكِ مـن أحضاني.

تخيلـتُ أنـكِ معـه، رُبما مسـتاءة، وقد تكونين تجـاوزتِ ذلك وتهللـت ملامحكِ له.

هل كنتُ قليلًا في قلبكِ إلى هذا الحدّ يا ساره؟!

أنـا من كان يخبـركِ أن حقول ياسـمين تنام على شـعركِ، كلما سـقطت واحدة بسـطت كفي بسـتانًا لها!

telegram @ktabpdf

أنا من رمى قلبه في ذراعيكِ، غيرَ مبالٍ بما تفعلينه بهِ.. حسبه أنه بين يديكِ، راضٍ بالألم إن قسوتِ عليه، ومطمئن إن احتفظتِ به.

سألتني مرةً:

- ماذا تحب فيّ يا غسان؟

- كل ما بكِ أحبه.

- احكِ لي.

- أحبّ الطريقة التي تفعلين الأشياء بها، حين ترين زهرةً ملقاة على الأرض، تضمينها نحوكِ وكأنها كانت لك.. تداعبينها بوجنتكِ، وعندما أخبركِ أنها وسخة، تقولين هذه نعمة الله، ويجب عليّ أن أحترم نعم الله. بعيدًا عن جنون أغنياتكِ، جئتِ كما أشتهي للمرأة أن تكون. وكلّ امرأةٍ سواكِ لا تترك في عينيّ شيئًا من الجمال كما تفعلين. صوتك لوحده أغنية.. أتعجب أنكِ لا تلاحظين، وهذا ما أترقبه حين تغرقين في أغانيك، أنتظر اللحظة التي يخرج فيها صوتك في محاولة اللحاق بكلماتها. دعيني الآن أصمت قبل أن أتوغل فيما تسترينه عني.

- فقط هذا؟!

صمتُّ لبرهة، ثم ضممتكِ إلى صدري، وأكملت:

مكتبة الرمحي أحمد

- حين يحل الصباح لا أستيقظ لشيء، سوى أن أراكِ. وحدكِ من تستحق أن يبدأ الصباح بها. أنتِ الفكرة العالقة في رأسي طوال الوقت! أحب حرمانكِ وهطولكِ، وأجدني أنتظر صباحًا جديدًا وبعيدًا، نستيقظ فيهِ بأجسادٍ هرمة ورؤوسٍ بيضاء، أقبلكِ وأدعوكِ لكوب قهوة.

- حقًا؟! تظن أننا سنبقى معاً؟

- لا يهم ما نظن. هذا ما أريده وما أحاول الوصول إليه.

بدا لي أن الوجهة التي أحاول أن أسير معكِ إليها أبعد من أي حلم!

لم أحتمل أن تعبث كل تلك الأفكار السيئة برأسي، ذهبت إلى أين يمكث علي. طرقت الباب بقوةٍ حتى أحسست بأصابعي تتخدر. خرج علي بوجهٍ نائم. قبضت على قميصهِ وأنا أشتمه.. جسده الممتلئ لم يردعني عن ذلك. ثم دفعني بقوةٍ للوراء؛ فسقطت أرضًا. عاودت النهوض ورحتُ أتعارك معه. حين خرج أصدقاؤه كان جائيًا فوقي يسدد اللكمات إلى وجهي. فرقوا بيننا، ونحن نصرخ ببعضنا البعض:

- راح أشتكيك، والله لأشتكيك.

كان يقول لي.

- وينها؟ خليها تطلع الحين.... ساره.

telegram @ktabpdf

- مجنون أنت؟ ساره مو هنا.

حينـذاك شـعرتُ بالألـم يسـري فـي وجهـي وجسـدي، كنتُ مهزومًـا بـلا شـك، لكـن شـيئًا فـي داخلـي كان راضيًا.

- يعني هي ما جات معك للبيت؟

- لا، روح دورها في مكان ثاني. الله يلعنك.

*

مكتبة الرمحي أحمد

لـم تنتـهِ تلـك الليلـة بسـلام. حاولـت البحـث عنـكِ فـي كل مـكان ولم أجدكِ. عـدتُ إلى المنـزل علّكِ تأتين، وحـلّ الصباح دون أن تعـودي.

هاتفـكِ مغلـق، ورغـم ذلك أرسـلتِ لكِ عشـرات الرسـائل. بعضهـا تريـد الاطمئنـان عليـكِ، وبعضهـا الآخـر كان يعاتبـكِ. حتـى اتصـل بـي رقـمٌ لا أعرفـه، أجبتُ سـريعًا: سـاره!

ثم جاء الصوت قائلًا: أنا زينب يا غسان. ساره عندي.

أخبرتها أني قادم من أجلك، وطلبت مني ألا أفعل.

– ساره متعبة. دعها ترتاح لدي هذه الأيام. لا تقلق.

لـم يكـن ثمـة شـيء أصعـب مـن غيابـك. إنهـا المـرة الأولى التـي أجـد نفسـي دونـكِ، انطفـأت فـي داخلـي شـعلة الغضب، وحـلّ مكانهـا بـردُ حنيـن لا يرحم.

أحسستُ بعتمة الغياب تبتلعني..

أنـا الـذي لم أبحث عـن الحبّ يومًـا، وجدته معـكِ وما كنتُ قاصدًا.

تسـللتِ إلـى قلبـي دون أن أشـعر، ولـم أكـن قويًـا بمـا يكفي لأمنعـكِ. إيمانـي بـأن لـكل شـخص فرصـة واحـدة للحـب تلاشـى.. ورحـتُ أحيـك فرصتـي الأخيـرة معـكِ.

telegram @ktabpdf

وجدتُ أن الحبّ ليس إلا شعوذة قلبٍ مجنون، حيث تبقى الشمس كما هي إلى أن تشرقي معها؛ فتستحيل إلى حقل قمحٍ يسأل وجهكِ الهطول، وتتبدل مواسم المطر كلما بدلتِ قميصًا يعانقكِ.

مجنون بكِ أنا، هذا ما أعرفه الآن. أجدني أسير إلى غرفتكِ بلا إرادة، أنكفئ على نفسي وأتكور بغطائك، أشعر برائحتكِ تعانق صدري، وأود أن أبكي. كتابك المفتوح على الطاولة الصغيرة، يحتضن وردةً بين أوراقه، هي ذاتها التي أهديتكِ إياها في رحلتنا الأولى، ورغم أنها جفت وذبلت؛ ما زالت تعني أنكِ تحملينني معكِ دائمًا.

ليتَ لي علبة صغيرة أخبئ فيها ما أحبه: أغنيةً بصوتكِ، ابتسامة خجلٍ من ثغرك كتلك التي تكون كلما قبلتُكِ، وإن كان بالإمكان حضنٌ احتياطي أهرع إليه عندما لا أجدكِ.

تغنين: هو صحيح الهوى غلاب.

حبيبتي، إن الهوى متاهة زمنية لا نهاية لها، هو الذكرى، الجرح، أول ميناء للتيهِ، أصعب محطة وداع، وكذبة صغيرة نعرفها جيدًا لكننا نأبى أن نصدق قلوبنا.

*

مكتبة الرمحي أحمد

عندما انقضت ليلتان دون استجابةٍ منكِ لاتصالاتي المتكررة، أرسلتُ لكِ:

(لا أحب لعبة الاحتمالات! أخبريني حين تتوقفين عن حبي. دعينا لا نضيع وقتنا في ترميم ما انكسر)

جاءت رسالتك سريعةً:

(فلنلتقِ اليوم.. في المكان الذي بدأ فيه هذا الحب. الرابعة مساءً)

*

في مكاننا القديم، وعلى الطاولة ذاتها، جلسنا.

عيناكِ متعبتان، وصوتكِ خائف ومتردد. بدأتِ الحديث مباشرة:

- أعلم أني أخطأت في حقك، لكنك لم تمنحنِ الفرصة للشرح. كنت تأبى أن تسمع مني كما لو أنك تفضل أن أبقى مذنبةً في عينيكِ. تظن أن الأمر يخصك وحدك، ولكن ..

- أخبركِ «علي» عن «عفاف»؟ هي لا شيء يا ساره ..

- أرجوك لا تقاطعني. اسمعني إلى النهاية.

صمتنا لبرهة، ومن ثم أكملتِ:

- لا تقلق، لستُ مهتمة بقصتك مع عفاف، ولم يخبرني

telegram @ktabpdf

بهـا علـي. زينـب فعلـت هـذا منذ مـدة، وفضلـت أن أبقـى معك بـلا أسـئلةً لـم أكـن بحاجـة لهـا. مـا أراه فيك أكبـر مـن كل كلامٍ يقـال يـا غسـان. أقبـل بـك كمـا أنـت، لا أنظـر إلـى ماضيك ولا لقصصـك الحزينـة، كل مـا أدرتـه هـو قصـة سـعيدة أبـدل بهـا أحزانـك.

مـددتِ يـدكِ علـى الطاولـة باتجاهـي، طوقتهـا بكفـيّ، ثـم وصلـتِ الحديـث:

- لـم أظن أن علي قد يحاول أن يشـوه صورتك عندي ليحظى بـي. كنـت أنت يـا غسـان محـور حديثنـا، ولـم أتحـدث معه في شـيءٍ آخـر سـوى حبّـي لـك. كان يبتلـع غضبـه كلمـا أكـدتُ له تـورط قلبـي معـك، يضحـك ليغيـر مجـرى الحديث إلـى وجهةٍ آمنـة، كنـتُ كمـن يعب التـراب فـي وجهـهِ ليتراجع. آلمنـي أنك ظننـت بـي السـوء، أتتخيـل أن أخونك يا غسـان؟ واللـه أحبك!

شـعرتُ بالنـدم يسـري فـيّ، أردتُ أن أعتـذر، لكـن صوتـكِ أوقفنـي:

- لكن حيلته الأخيرة نجحت!

- ماذا تقصدين؟!

- أقصـد أنـه ... يعرف أمـورًا لم تخبرني بها يا غسـان. أشـياء لا يمكـن للمرء أن ينسـاها هكذا! أو على أقل تقدير، أن يشـاركها

مكتبة الرمحي أحمد

مـن يحبـه، ومـن ينـوي أن يقضـي حياته معـه. أليس هـذا ما كنت ترغب بـه؟ أن نكون معـاً دائمًا؟

أسـندت ظهـري إلى الـوراء، نظـرتُ إليـك أبحث عـن علامةٍ تقـول أنـكِ سـتكذبين الآن، لكـن عينيك كانتـا مصوبتيـن نحوي تمامًا.

أخرجـتِ هاتفـكِ مـن حقيبتـكِ، عبثـتِ بـه للحظـات قبل أن تديـري شاشـته نحوي.

- أتعرف من هذا؟ وهل أمرٌ كهذا تنساه بسهولة يا غسان؟

كانـت عيناي مشـدوهتين على شاشـة الهاتف. الوجـه الصغير فيهـا يبتسـم، ورغـم السـنين التـي مضـت دون أن أحظـى برؤيتهِ، عرفته.

- هذا «فهد»!

*

telegram @ktabpdf

(٨)

لـم يكـن ليؤذينا أحـد لو أننا اتخذنـا قراراتٍ صائبـة في الوقت المناسـب. لكـن مـا معنـى الحيـاة بـلا أخطـاء، بـلا أذى يعلمنـا معنـى أن نكـون مـع مـن يرمم جراحنـا. قد كنـتُ أسـبح دائمًا في اتجـاهٍ خاطـئ، ألحـق بعلامـات مزيفـة وأظن أنهـا ترشـدني إلى طريـق الخـلاص. وحين أصل؛ لا يكون هناك سـوى جـرحٍ قديم يتسـع على خارطـة الألم.

تقـول لـي أمي: إن الزمـان يتكفل بترميـم ما انكسـر، وأنه عليّ أن أنتظـر فقط.

أبـي يقـول: إنـيّ أغبـى مـن أن أتمسـك بهـذه الفرصـة التـي وضعهـا بيـن يـديّ. الفرصـة التـي قـد تغيـر حياتـي للأبـد، وقـد فعلـت. ينـدب حظـه أحيانًـا لأنـه لـم يعطها لسـعد: سـعد رجال ويعـرف كيـف يحافـظ علـى زوجتـه، ليتنـي مزوجـه إياهـا.

وعندمـا أسـأل ناديـة/ الفرصـة التـي أصبحـت أخسـرها، لا تجيـب أبـدًا.

كان بطنهـا يتكـور يومًـا بعـد يـوم. تسـمح لـي بـأن أتحسسـه

مكتبة الرمحى أحمد

بأصابعي حين أصر على ذلك أحيانًا، ولم أرَها تمسح عليهِ بكفها يومًا! كان يطول الوقت بها وهي في دورة المياه، فأقلق عليها، اضرب الباب مناديًا باسمها، أسمع صوت أشياءٍ تقع قبل أن تجيبني بأنها ستخرج الآن. وعندما تخرج يكون وجهها متعبًا، تتألم، أسألها: ما بكِ؟ تجيب: أريد أن أنام.

كنتُ أراها تهرب إلى النوم من الحياة معي، هو طريقها المختصر لتمرير الأيام بسرعةٍ على التقويم.

ثم أصبحت تتهرب مني بطريقة تقليدية، تقول إن رائحتي تزعجها، وتعزي ذلك لأن حملها هو ما يتسبب بنفورها مني. في البداية طلبت مني أن أنام في مكانٍ آخر، بعد ذلك قالت أنها ستذهب إلى بيت أبيها، هناك لن تكون لي رائحة. وافقت على مضض، وقلت لنفسي كما كانت تقول لي أمي: عليّ أن أنتظر.

أدركتُ أن الحياة معها إن استمرت، لن تكون سوى جحيم نسكنه! يراه البعيد جنةً، ولا يفهم معنى أن تبتسم وأنت تتألم.

حاولت أن أصلح ما فسد دون أن نتنبه له، حملتُ نفسي وذهبتُ إليها في بيت أبيها، لكنها لم تكن هناك. أخبروني أنها تخرج من البيت كل يوم لتزورني. لم أشأ أن أفسد كذبتها، وأكدت لهم ما كانت تقوله.

telegram @ktabpdf

في اليوم التالي، ركنتُ سيارتي قريبًا من البيت. كانت الشمس تحرق جلدي، وما في قلبي يحرق روحي. انتظرتُ إلى أن غابت الشمس، ومن ثم رأيتها تخرج. تتلفت يمينًا وشمالًا، حتى توقفت سيارة بيضاء أمامها. صعدت إلى مقعد الراكب الأمامي بسرعة، وانطلقت السيارة.

لم ألحق بها، ولم أرد معرفة من كان معها.

بعد يوم آخر، أرسلتُ لها بأني أرغب برؤيتها. قالت إنها ستزورني اليوم في المنزل، وفي ذات الوقت الذي رأيتها تخرج للسيارة البيضاء، طرقت بابي.

خلعت غطاء وجهها، بينما ظلت ترتدي عباءتها وكأنها تخبرني أن وقتي معها سيكون قصيرًا. جلست أمامي على الأريكة. لا تنظر إليّ، تعبث في العلب البلاستيكية المتناثرة على الطاولة لتتجنب الحديث معي. أحمد

كنت أتردد في السؤال عمّا رأيته، شعرتُ بأنه سيكون حديث أخير بيننا.

حينما ترمي بكلماتٍ جارحة؛ فلا يبقى لك في القلب مكان، لكني لم أكن في قلبها أبدًا! أدرك منذ مدةٍ طويلة، لكني حاولت حتى أصبحت أحفر قبرًا يتسع لكل شيء كان بيننا

مكتبة الرمحي أحمد

تشجعتُ وقلتُ لها عن حادثة الأمس. لم أكن أنتظر منها اعترافًا صريحًا، كنتُ أمني النفس بقصة كاذبة تخبرني بها لينتهي هذا الجحيم الذي نعيشه. أصدقها وإن لم يفعل قلبي، وتعود إليّ كمن يحاول أن يمحي خطيئتهُ بخطيئةٍ أخرى.

لكنها كانت صادقة تمامًا، لم تتهرب من الإجابة، تحدثت معي كما لم تفعل من قبل، كانت الكلمات تخرج من فمها واحدةً تلو الأخرى دون توقف... كان قلبها يتكلم.

(تعلم أنك لم تكن سوى رجل غريب أعيش معه. حاولتُ أن أحبك، ولكن ماذا عساي أن أفعل بقلبٍ مزدحمٍ بصورة شخصٍ آخر. أنا وأنت يا غسان لن نكون سوى قطعتين مختلفتين.. حاولوا أن يربطونا ببعضنا البعض، حتى اهترأنا ولم يعد هناك حيلة ليصلحوا ما أفسدوه بنا. تريد أن تعرف مع من كنت؟

حسنًا، اقبل إذًا بالحقيقية كما هي إن كانت ما تسعى إليه. كان الشخص الذي أحب حقًا، الشخص الذي بنيتُ أحلامي معه لأربعة أعوام كاملة بخريفها وشتائها، بأيامها الحزينة، وتلك الأخرى السعيدة. الشخص الذي لم يحدث أن أخلفت عهدي معه، ولم يحدث أن تنازل عني أبدًا.

لم يكن يفصل بيننا سوى أيامٍ معدودة لتصبح أمنياتنا واقعًا

telegram @ktabpdf

انتظرناه، اتفقنا أن يتقدم لي خلال أسبوع، لكنك جئت أنت وأفسدت كل ما أردنا أن نكون عليه يومًا ما. هل تعلم أني رفضتك مرات عديدة؟ بكيت لئلا يحرموني ممن أحب، لكنهم لم يبالوا بقلبي. أخبرني أبي أن لا مكانٍ لديه لي إن لم أكن لك. كان يعلم مسبقًا بمن أحب؛ فأقسم بالله ألا أكون معه ما دام قلبه حيًا.

أتدري أني أخطأت باسمك مراتٍ عديدة أيضًا؟ كنتُ أناديك باسمهِ.. الاسم الذي لم أتخيل أن أكون مع غيره. هناك شخص واحد يستحق كل حواسك، يرتكز في الذاكرة كجبلٍ لا تقوى على التخلص منه، والانتماء لمكانٍ أو شخص آخر. أما أولئك الذين يحيطون بك دون أن ترغب بقربهم؛ فليسوا سوى عقبة طارئة يجب أن تجد لها حلًا.

ستقول أن لا ذنبك لك في هذا العذاب، لكني أخالفك الرأي. ذنبك أنك حرمتني من حلمٍ وحيدٍ كان في صدري.

لم أكن امرأةً سيئة يا غسان. فلماذا تسيء لي الحياة بهذه الطريقة الفظيعة!

في مرحلةٍ ما، أردتُ أن أخبرك بكل ما في قلبي. رأيت فيك الجانب الطيّب، وقلت أنك ستتفهم هذا. ستتركني أعود إلى من حال بيني وبينه القدر، وسينتهي عذابنا، عذابي أنا على

مكتبة الرمحى أحمد

الأقل! حتى أصبحت أحمل في داخلي طفلك.

كرهتُ نفسي أكثر، وكرهتك حتى أردت أن أؤذيك.

كنتُ أقفز على الأرض وأدعو أن يسقط من بطني ما كان يزيد عليّ ثقل الحياة. ومرات أخرى كنتُ أضرب بطني، ولم يحدث أني ندمت على ذلك. وإن كنت ترغب بمعرفة السبب الحقيقي لتأخري أحيانًا في دورة المياه؛ فأظن أن أفكارًا عديدة وصحيحة في رأسك الآن.

أرجوك، توقف عن محاولة اللحاق بما يمكن أن يصلح بيننا

ليس بيدي حيلة، هذا القلب معطوب، وليس بوسعنا أن نغير ما يهوى الفؤاد. نحن في ظلالهِ تائهون، ضائعون، ولا نقوى على البحث عن ملجأ آخر.

أعدك أن ينتهي كل شيء، فور أن أضع طفلك. هو لك، لا أريده. فقط امنحني الفرصة التي ضاعت من يديّ بسببك.. أن أكون مع الشخص الذي أحب، وأقولها لك الآن بكامل قواي: لا أريد حياةً ليست معه).

*

telegram @ktabpdf

ليس لرجلٍ مثلي اختيار في حياته، كانت تسير بي الحياة لمحطاتٍ لا أعرفها، وكنتُ أظن أن كل محطةٍ جديدة ستكون وجهتي الأخيرة، حتى طال الترحال بي؛ فلم أكن سوى غريبٍ مع كلِ من أردتُ الحياة بهم.

انتهى كل شيء بيني وبين نادية، لم يعد ثمة كلام أو لقاء. ما زلتُ أذكر حديثها، مواضع سكونها فيه، علامات غضبها. وحينما يتحدث قلبها عمّن أحبت.

إنها التفاصيل الصغيرة، تلك التي كنتُ أجمعها منها، وأظن أني بهذا أخلدها في قلبي. الآن، لم تعد سوى زجاجٍ متحطم أدوس عليه لأنزف أكثر.

خمسة شهور هي كل ما يفلصنا عن شارة النهاية لهذه المسرحية التي لم نكن بها سوى ممثلين لم يحسنوا إتقان أدوارهما بالشكل المطلوب. ستضع الطفل، ومن ثم ستختفي من حياتي للأبد. هكذا كان الاتفاق.

كانت الأيام تمضي ببطء غير معتاد، ولا ينقضي يوم حتى يضع فيني من الهمّ أثقالًا.

مكتبة الرمحى أحمد

حينـذاك، لـم يكـن في رأسـي سـوى فكـرة واحـدة، أن أغادر هـذه الأرض. إن كانـت العتمـة والوحـدة نهايتـي هُنا؛ فمـا أريده هـو أن أحتفـظ بالنـور فـي داخلـي، بنوافذ مختلفـة؛ كلمـا مللت الظلمـة أخرجـت رأسـي منها.

سـألت نفسـي: مـاذا عـن الوجـوه التـي سـتفتقدها يا غسـان؟ عـن الأماكن التي ستشـتاق لهـا؟ عن التواريـخ التي تعيـدك دائمًا حيث بـدأت؟

لا أريدهـا. لا أريـد لجـوءًا لأرض واحـدة، أريـد أن ألجـأ للسـماء! السـماء التـي كل الأراضي فـي نظرها واحـدة. قد يكون مـا تبقـى لحياتـي أقصـر مما مضـى، لا يفيـد أن أعيد عليهـا ذات الصـور. الوقـت نـرد صغيـر لا تعـرف علـى أي رقـمٍ يسـتقر، لا تعـرف مـا يمكـن أن يعطيـك ومـا يسـتطيع أن يسـلب منك.

سـأوظب حاجاتـي، وأنهـي عملـي هنـا ثم أرحـل بعيـدًا .هل لديـك مـا يكفـي مـن مـال؟ رصيـدي البنكـي يقـول أنـه يسـمح برحلـة محـدودة المحطـات.

ثـم تعرفـتُ على سـمير مـن خلال بحثـي على بعـض المواقع الإلكترونيـة المهتمـة بفـرص الاسـتثمار. لبناني يحمل الجنسـية الأسـترالية، تعرفـت عليـه مـن أحـد المواقـع الإلكترونيـة، كان يبحـث عـن شـريكٍ يمولـه ليفتتـح مطعمـه، ووجـدت فـي هـذا

telegram @ktabpdf

فرصة مثالية للهروب، وتبدو أفضل مما فكرتُ بهِ مسبقًا؛ حيث يمكنني الإقامة في «بريسبين» بلا مشاكل إن كنت صاحب عملٍ تجاري .اتفقنا على الشراكة؛ فجهز لي تأشيرة عمل، وظللت أنتظر لحظة الهروب.

في العاشر من تشرين، اتصل بي عبد الرحمن، أخو زوجتي نادية.

- نادية بتولد، تعال بسرعة.

حين وصلتُ إلى مستشفى الولادة، كانت نادية تتألم. عيناها تنحسران، ووجهها يظلم كلما صرخت. كنتُ أراها واهنة.. ترتجي كل من يمر من أمامها أن يضع نهايةً لألمها. حين تنبهت لوجودي أشارت لي بيدها أن أقترب منها. وقفتُ بجانبها فنظرت إليّ بحبور، كانت المرة الأولى التي أرى عينها تبتسمان. قالت: سينتهي كل هذا يا غسان، ثم سنعود معًا، أعدك أن أحاول مرةً أخرى.

في لحظات الضعف نقدم تنازلاتنا على هيئة قربانٍ إلى الله لتنتهي أوجاعنا ونعود في سلام. في تلك اللحظة، حيث الهوان.. ندرك كم كانت قاسيةً كلماتنا! كم كان عظيمًا الجرح الذي خلفناه في صدور من أردوا أن نكون معهم! أولئك الذين أغلقنا أبوابنا أمامهم دون أن نبالي بضياعهم وليالي البكاء التي

مكتبة الرمحي أحمد

تمطـر فيهـا قلوبهم قبـل عيونهم.

هنـاك نهايـة لكل أمـر. إنهـا البداية ذاتهـا لأمرٍ جديـد يصطف علـى قائمـة الأقـدار دون أن ننتبه له.

ومـا بيـن كل نهايـة وبداية؛ نجد أنفسـنا نقفـز على خيـطٍ رفيعٍ ليـس هنـاك من قـاعٍ تحته سـوى شـفا حفرةٍ مـن تيه!

قالـوا لـي إن العمليـة القيصريـة لـن تسـتغرق أكثـر من سـاعة ونصـف، ولكـن مـرت أكثـر مـن ثـلاث سـاعات دون أن يخـرج أحـد ليـزف البشـرى. بعـد ذلـك بسـاعةٍ أخـرى، أخبرونـي أنـي أصبحـتُ أبًـا، ومن ثم أضافـوا أن بابًا في السـماء قـد فتح لتصعد روح أقسـمت ألا تقبـل بحيـاةٍ لـن تكون مع مـن يرغب بـهِ قلبها!

هكـذا ببسـاطة، انتهى كل شـيء. رحلت نادية، وبـدأت حكاية أخـرى! تيـهٌ آخر.. أبطالـه: أبٌ وحيد، وطفلٌ اسـمه فهد.

*

telegram @ktabpdf

(٩)

كان يجهش بالبكاء كلما حملتهُ؛ فلا أقدر على أمر سوى أن أبكي معه.

له وجهُ أمهِ، عيناها وثغرها الصغير. بقدر رغبتي بأن أبدأ معه حكاية أجيد الإمساك بتفاصيلها، وأسيرها كما أرغب؛ كنت أشعر بأنه حملٌ ثقيل لا طاقة لي به. لم يهون عليّ الأمر سوى زوجة أخي سعد، ريم، التي احتضنته كما تفعل الأم. أرضعته من صدرها حتى امتلأ جسده. كانت له أم حقيقية، تعطف عليه، وترعاه بسرور، وإن حاولت أن آخذه منها تتكدر.

رُبما لأنها لم تنجب ولدًا من قبل، قد حاولت حتى سكن قلبها اليأس؛ فأصبح فهد فرصتها لتعيش الأمومة.

أخي سعد لم يمانع من ذلك، كان سعيدًا لرؤية زوجته تنشغل بشيءٍ عدا المسلسلات التركية، وحين أخبرته بأني سأهاجر لمكانٍ آخر، قال: ابنك بالحفظ والصون، الله معك.

قطعت التذكرة، ووظبت حقائبي. رغبتُ بأن أودع أبي، لكن شيئًا ما منعني. أخبرت سعد بأن يتكفل بالمهمة، وأن يجد لي

مكتبة الرمحي أحمد

مخرجًا من لومه على فعلي هذا. حين وصلت المطار، أرسل لي سعد يخبرني أن أتمم ما طلبته منه. سألته عن ردة فعل والدي؛ فأجابني: لم يقل كلمة واحدة عنك، لكنه بعد ذلك تحدث عن عقارٍ جديد يرغب بشرائه!

في هذه المدينة «بريسبين» التي تنام على الطرف الأقصى لخارطة العالم، بدأت رحلة غربتي.

التقيتُ بسمير بعد يوم من وصولي. ومن ثم ذهب بي إلى مكان المشروع. مطعم شرقي على ضفاف النهر في منطقة «الساوث بانك» حيث يتصل الليل بالنهار دون أن تتوقف الحركة.

بدا لي سمير أنه على اطلاع مسبق بأمور التجارة، ولا أذكر كم كان المبلغ الذي دفعته له تحديدًا؛ فقد كان دفعات متعددة ومختلفة المقدار، ولم أكن أبالي بما أدفعه! أنا هنا، بعيدًا عمّا هربت منه، وتلك هي تجارتي الرابحة.

تركته يقوم بكل شيء، حينما يحتاج المال يأتي إلي، أدفع ويستمر العمل في المطعم. بعد بضعة أشهر بدأ المال ينهمر، ربح جيّد، مبلغ يتراكم في رصيدي، سمير يبتسم حينما يراني، وأنا وحيد.. وهذا جيّد.

استمر الحال لعدة شهور جيدة، ثم اختفى كلّ شيء.

telegram @ktabpdf

سمير لا يجيب على هاتفه وحين أسأل عنه في المطعم؛ لا أحد يجيبني بما يفيد. مضى شهر، ثم شهران، وحين حلّ الشهر الثالث كنت أتربص له أمام منزله الذي وجدته بصعوبة. أوقف سيارته؛ فركضت نحوه .لم يكن مندهشًا حين رآني! فقط كان مترددًا في قول ما عنده. سألته عن سبب غيابه؟ ثم قلت له :لا شيء وصلني منك منذ ثلاثة شهور، تعرف أني وضعت كل ما لدي معك، والآن أعيش على ما يصلني منك. ما بك سمير؟!

- لن يصلك شيء بعد الآن، ولا شيء لك لتطالبني به.

في نهاية الأمر اتضح لي أنه نصب عليّ، وكل ما قدمه لي من أوراق تثبت سهمي ومشاركتي كانت مزيفة. حتى تأشيرة العمل التي جئت بها لم تكن سوى تأشيرة عامل!

لم تفد محاولتي في التردد على مكاتب المحاماة، كانوا يرددون في وجهي: القانون لا يحمي المغلفين.

بعد بضعة أسابيع نفد رصيدي البنكي، صاحب الشقة التي كنت أقطنها أخبرني أنه سيمنحني أسبوعًا واحدًا بالمجان.. ويتوجب عليّ المغادرة بعد ذلك. أصبحت أبيع ما لدي من أثاث ومقتنيات، حتى نفد كلّ شيء.

كان باستطاعتي إنهاء معاناتي بمكالمة واحدة، رقم أعرفه،

مكتبة الرمحي أحمد

صوت أحفظ نبرته، وشخص أعرفه جيدًا، إلا أن الكبرياء تملّكني، حتى وجدت نفسي تائها ووحيدًا في شوارع بريسبين.

وهناك التقيت عائلتي الجديدة:

جورج، رأسه الأصلع، وحكاياته الطويلة عن زوجته التي أخذت كلّ شيء منه، كل شيء بناه لوحده، كل شيء في يومٍ واحد تجرد منه وفضل أن يستلقي في زوايا الطرقات على أن يعود إليها.

ماندي، الشقراء الطويلة، جسدها ماجن، تغطيه عبارات وجماجم وفراشات موشومة، لم تقل كيف انتهى بها الأمر هنا! تكتفي بالضحك.. الضحك طويلًا، وهي تدع الشراب في فمها.

لا أعلم كيف أصبحت منهم، كيف كانوا لي عائلة مشردة وقذرة، لكنها عائلة على كل حال.

كنت أقضي النهار في البحث عن وظيفة، لدي شهادة في الإعلام، لكن لا أحد يقبل هذا الغريب.

حين يحلّ الليل، أذهب لباحة مهجورة، بالقرب من بيت دعارة على شارع «سبرينق». سيارات الأجرة تقف بكثرة هناك بانتظار الزبائن المنتشين، وفي الجهة الأخرى للباحة أماكن محجوزة لمشردين أمثالي.

telegram @ktabpdf

في البدء كان صعبًا التأقلم، رغم أنهم جميعهم مشردون.. لكن لا أحد يرحب أو يقبل بضيوف جدد. أذكر أني ذات مرة نمت تحت مظلة ملونة ومعلقة لم أرَ أحدًا يقترب منها لأيام. كنت منهكًا فغططت في نومٍ عميق، حتى استيقظت على ركلات رجل أسود، كثيف الذقن، سيء الرائحة، يعلق سيجارة فوق أذنه، ويرتدي ملابس ثقيلة في صيفٍ طويل. نهضت مسرعًا بالابتعاد وشتائمه تصلني حيثما اتجهت في هذه الباحة الكئيبة.

حينها اقترب مني الرجل الأصلع، وكان يسخر من شكلي المذعور، قال:

- هذا إيرك. معتوه، لن ترغب بمعرفة ما يستطيع فعله هنا. بالمناسبة، أنا جورج.

- غسان، أنا غسان.

قلت له.

- لا بد أنك لست من هنا.. شكلك، اسمك، ولهجتك تقول ذلك.

- نعم .. نعم هذا صحيح.

- حسنا، إن كنت ترغب بالسلام هنا؛ فأشك أنك ستحصل عليه. هذه غابة! رغم ضعف الجميع.. من يجد فرصة لنهشك

مكتبة الرمحي أحمد

فلن يتوقف ولن يوقفه أحد. كن حذرًا، ولا أمانع من الرفقة متى ما رغبت بالتحدث.

وظللت وحيدًا في هذا المكان، حتى أمطرت ذات ليلة.. الصيف هنا ماطر، لا تفرق بينه وبين الشتاء. المطر عنوان دائم لأيامه. كنت قد تبللت بما يكفي ليشفق علي جورج. نده عليّ من بعيد؛ فاقتربت من مكانه. أخبرني أنه بإمكاني الاختباء من المطر تحت سقفٍ رُسمت عليه علامات وكلمات بذيئة يستقر تحته.. هذه ضيفة لا ترد في وقتٍ كهذا؛ فقبلت، ومن هنا بدأت علاقتي به.

كان لا يتردد في التحدث عن حياته السابقة، أخبرني أنه عمل ككبير مصرفي أحد البنوك، يقول أنه كان يجني ما يوفق المئة ألف دولار سنويًا، لديه سيارة فارهة وبيت كبير في ضاحية تطل على البحر.

لم أصدقه، ظننت أنه يكذب ليمر الوقت دون أن ينتبه له، حتى أخرج صورًا فوتوغرافية بحوزته، في إحداها، يقف مبتسمًا وخلفه سيارة مرسيدس من طراز التسعينات، طلاؤها يلمع كما تلمع صلعته تحت شمس ظهيرة.. صورة أخرى يظهر فيها بسروالٍ قصير ومن أمامه مسبح أولمبي طويل و كبير .

telegram @ktabpdf

ينظر إليها وهو يحكي قصته، ثم يشتم ويشتم حتى يزبد فمه. فهمت منه أن زوجته استطاعت أن تقنع القاضي بأحقيتها بكل شيء يملكه في جلسات الطلاق، ثم تركت له أشياء بسيطة حولته إلى إنسان مكسور، فقد عمله بسبب كثرة تغيبه والإكتئاب الذي أحاط به حتى تمكن منه، ثم انتهى به الحال في هذه الباحة.

- المضحك بأن من يهزمنا أناس وثقنا بهم، ومن يحطمنا أشخاص أحبّبنا قربهم.

قال لي في ليلة مظلمة.

يسألني بين الحين والآخر عن قصتي.. أخبره عن سمير النصاب وما فعل بي.. يقول متهكماً:

- لماذا لا تتصل بـ «يور ولثي فاميلي»

أجيبه بأن لهذه قصة أخرى؛ فيحثني على البوح بها وأمتنع.

تنضم إلينا ماندي بين الحين والآخر، المرأة التي يرغب بها الجميع هنا، لكنها لشخص واحد فقط لا يقبل المشاركة: إيرك الأسود.

في أحيان كثيرة تكون منتشية، العشبة الخضراء لها مفعول سحري عليها. رأيتها ذات مرة وأنا أتسكع في ساحة السوق تمسك بغيتار، تعزف وتغني بهدوء، بينما تمتلئ العلبة التي

مكتبة الرمحي أحمد

أمامها بقطع معدنية صغيرة تصرفها على ما تدخه، صوتها مريح جدًا، أغانيها ريفية هادئة، شفتاها تتحركان بنعومة مع ريشة الغيتار.. الناس من حولها يخلدون أغنيتها في هواتفهم المصوبة حيث تجلس.. تشعر أنها خارج العالم، خارج الضجيج، تحلق وحيدة.

تنتهي الأغنية، تعود إلى الأرض، يصفق الناس، يتفرقون وتبقى وحيدة.

مرّ شهر وأنا مشرد، خسرت وزنًا كبيرًا، ملابسي الرثة لا تشي بتحسن للحال، تنقلاتي بين المحلات والأسواق لا تنبئ بفرصة جديدة.. الصمت يبتلعني، والحاجة تأكلني!

استسلمت أخيرًا، أخبرت جورج بأني أريد هاتفًا يمكنني من خلاله الاتصال برقم دولي، أشار لي ناحية المظلة الملونة.. حيث ينام إيرك.

كنت خائفًا من الاقتراب منه، لا شك بأني سأعود بلا فائدة إن ذهبت إليه، هناك حلّ واحد، ماندي، قد تستطيع المساعدة.

حين عادت ماندي ليلًا أخبرتها بحاجتي للهاتف، كانت مترددة بعض الشيء، قالت:

- لو أحس باختفائه ستكون نهايتنا.

قلت لها بأني سأنتظر، وسأكون هنا في أي وقت يمكنها

telegram @ktabpdf

أن تخطف الهاتف، ولم أنم تلك الليلة! كنت أنظر إليهما من بعيد.. إيرك يغط في نومٍ عميق، ماندي تتقلب بين الحين والآخر، وبعد ساعة رأيت ظلها يمشي على مهل بين جسد إيرك والأغراض المتناثرة حوله، علمت أن الوقت قد حان.. ماندي تبتعد عن المظلة بحذر، أنا أحاول تذكر الرقم، قطعت ماندي نصف المسافة نحوي، نسيت آخر رقمين، ماندي تقف أمامي وتطلب مني أن أسرع وشعلة سيجارتها تحمر وتحمر، أصابعي ترتجف.. الهاتف يرن، ويرن، لا أحد يجيب، حينها حاولت ماندي أخذ الهاتف مني، توسلت إليها باتصالٍ آخر، الهاتف يرن، يجيب الشخص الآخر من مكانٍ بعيد، أتحدث ببطء:

- سعد، هذا أنا.

أسمع صوت أنفاسه، الصمت يستمر، أخبره:

- أحتاج خدمة صغيرة يا سعد، لن أستطيع أن أطيل بالحديث الآن.

يتحدث أخيرًا:

- أسمعك.

- سجل عندك هذا الرقم.

يطلب مني الانتظار.

مكتبة الرمحي أحمد

أخرج البطاقة الصفراء من بنطالي وأنتظر

- قول.

أملي عليه الرقم الطويل، ويسجله وهو يعيد عليّ أرقامه.

- اذهب للبنك غدًا، تعرف ما أحتاجه الآن. لن أستطيع التحدث أكثر.

يسألني قبل أن أغلق الخط:

- غسان، أنت بخير؟

- اذهب للبنك يا سعد.

أقول له وتنتهي المكالمة.

لحظات وتمدد جسد ماندي بالقرب من إيرك، الليل هادئ، واستمر كذلك.

في اليوم التالي كنت أقف في طابورٍ طويل في البنك، حارس البنك اعترض طريقي قبل أن أدخل، هيئتي لم توحي إلا بالتسول! أخبرته بأني عميل في البنك، لم يصدق؛ فقلت له رافقني وتأكد من ألا أحدث مشاكل هنا.. وافق بعدما تفحص جسدي بعصاه الإلكترونية.

حين جاء دوري، أخرجت جواز سفري وأعطيته للموظف، طلبت منه أن يرى ما تبقى في حسابي، لحظات ثم أصبح يسألني عن تاريخ ميلادي، تهجئة اسمي، سؤال الأمان

telegram @ktabpdf

وإجابته، وحين تأكد من إجاباتي، أخبرني بالرقم الذي في حسابي. حينها تراجع الحارس معتذرًا وبعينين متعجبتين.. سألني المصرفي:

- هل ترغب بالتوجه لقسم «كبار العملاء»؟

*

بعد ثلاثة أيام، كانت ماندي في مكانها المعتاد، صوت غيتارها فسحة للروح، وصوتها دعوة للرقص.

حينما انتهت من غنائها اتجهت للعلبة تحصي ما نالته من قطع معدنية، وبين القطع الصفراء الفضية، كان هناك ظرف ممتلئ بأوراق نقدية من فئة المئة دولار، كتب على وجهه «شكرًا».

صرخت من فرحها..

سمعت صرختها وأنا أبتعد.

*

مكتبة الرمحي أحمد

تعلمت من تجارب الحياة أن كلّ شيء تخوضه، جيدًا كان أو سيئًا، يمكنه أن يغير بك الكثير، يمكنه أن يضيف لك العديد من الأشياء التي تفتقدها. فضّلت أن أبقى في الشارع لأجد وجوهًا جديدة تضاف في قائمة الأشخاص الذين تجمعني بهم هذه الرحلة القصيرة/ الحياة أعني.. وأن أسمع حكايات كثيرة؛ فالحياة ليست سوى فيلم سينمائي يعبر ذاكرتك وأنت توشك على الخروج منها.

تسألينني أيتها العزيزة كيف أصبحت على مقاعد الدارسة. والآن أخبركِ أنه لم يكن سوى غطاء لأبقى في هذه الغربة لوقتٍ أطول! عليّ أنسى ما مررتُ به، أو أن يطول بي الأمد في غربةٍ تستحيل إلى وطنٍ لا يغربل أفراحي.

*

telegram @ktabpdf

(١٠)

تبكين أحيانًا لأن شطرًا من أغنيةٍ قد تعمق فيكِ حتى ضرب أوتار الشعور. لا تجدين سوى صدري وسادةً تبللينها وتسألينها الطمأنينة. حينها لا أجد فيكِ سوى طفلةٍ تهرب من كلمات الغرباء وتحتمي بي، حيث تجد حقيقةً واحدة: أنيّ متيمٌ بها.

قد كانت اللحظات معكِ كدعواتٍ للحبّ. تظنين أن معي الأمان، والراحة، والسكون، وأتيقن بأني أجد معكِ الحياة.

قد شاء الله بأن نلتقي، ثم في بحرِ الغياب نرتمي.

ما ذنب عاشقٍ لوصالكِ يرتجي أن يغيب في الهجرِ وتعود رسائلهُ حزينةً لا تجد كفًا تمسح غبارها، وتنثر حروفها! ما ذنب من تعلقت روحهُ بأطراف أصابعك، تقلبين حنينها وحزنها كما تشتهين، ولا يملك سوى دعاء يلهث بهِ: يا ربّ الوصال.. سلّم سلّم!

ليس من الصعب أن أتخيل ابتسامتكِ تتجهُ نحو وجهٍ آخر، ما ينهكني أن يكون في قلبكِ الآن شخصٌ آخر.

مكتبة الرمحي أحمد

معضلتنا، أيتها السمراء كقرص شمس، أن النسيان محضُ خيال، وأن ما نتركه في قلوب من نغيب عنهم.. نهرٌ جارٍ لا ينضب. حينما تكونين سحابة مطر؛ فماذا أفعل بطفلٍ يسكنني، كلما هطلتِ هجرني واختار أن يتبلل بكِ!

كل مكان تحطين فيهِ هو أرضي، وكل عنوان لكِ هو دائمًا وجهتي.

حينما أخبرتُكِ بقصتي، بمحطاتي، بلوعتي قبل أن يستقر على ضفة بحركِ قاربي، أرسلتِ لي رسالةً بريدية كما يفعل الغرباء:

«لا تصالح

إما حبٌ صادقٌ بلا إشراك

وإما سلامٌ عليك، عليّ، إلى يوم يبعثون.

لا يكفيني نصف حبّ، نصف جنون، ونصف قلب.

إني أريد مجنونًا لي وحدي، يراقصني كما لو أني فراشة تلهو على كفيّهِ

يحكي لي عن قصصه الخيالية، حتى أنام بين ذراعيه طفلةً سعيدة.

يناديني باسمٍ لا يصح أن يأتي من أحدٍ سواه، ويكلمني بصوتٍ لا يصح أن يذهب لسواي.

telegram @ktabpdf

وإني لك روحٌ لا تتوقف.. عن حبّك، عن اللحاق بك، بضحكاتك؛ لئلا تعبر مكانًا آخر لستُ به

وعن تدوين كلماتي الحالمة لتقرأها ذات يوم.. وتجيب نداءها».

أزاحت كلماتكِ حزني. وجدتني أتساءل: كيف استطاعت أن تخترق قلبًا لا يفهم الكلمات حينما تأتي محملةً بالحبّ؟!

حتى أدركت أن الكتابة لم تكن سوى حيلة امرأةٍ لم تستطع الكلام، وأن في داخل كل امرأة كاتبة تخرج حينما يحين الوقت لكسر رتابة الكلام.

عاهدتُكِ ألا أغيب، ألا أتوه عنكِ، وألا يكون في صدري أحدٌ سواكِ.

كنتُ مجنونكِ الذي يرمي بعقله ويتبع قلبه.. القلب الذي ينصاع إليك وفيكِ ومعكِ. أليست الحياة أقصر من أن نضيعها في واقعٍ لا يترك لنا قاربًا صغيرًا نهرب بهِ إلى ضفافٍ نشتهيها وننتمي إليها!

مكتبة الرمحي أحمد

أقسمتُ لكِ أن أصيغ معكِ حكايات مجنونة، وحبًّا يتبعه السائلون عن الخلودِ في صدور من طابت الحياة لهم بقربهم.

حين تحزنين، يكون لكِ حزن القمر.. ينطفئ جزءٌ منكِ، بينما يبقى الآخر متوقدًا يبحث عن أمل، عن طريقٍ للعودة، حتى يكتمل في روحكِ البدرُ وتخرجين بالنورِ مدارًا يتبعهُ سائر المغيبين في دوامة العشق.

كنتِ حبيبةً ترتدين الصداقة لئلا ينكشف سرنا، لكنكِ من فرطِ الجنون تتعلقين بي كعاشقةٍ لا تخاف فضيحة حبّ في زمنٍ تضيعنا فيهِ بنودُ القبيلة وعاداتٌ تنحر بنا كل وصل!

فماذا حلّ بنا يا صديقتي، كيف فرقوا بيننا ونحن هائمان، نتشبث ببعضنا لئلا يحيل بيننا قدر نندم عليه.

- هل سنكون عائلة يا غسان؟ أعني أنا وأنت ... وفهد؟

أصمت حائرًا. فتواصلين الحديث.

- يجب أن يكون معك، أنت أبوه، وليس هناك في الدنيا شيء يحول بينكما. كن أبًا طيبًا له، أو كن لا مباليًا، لا بأس! ولكن كن معه. لا تجعله يكبر بعيدًا عنك، والمسافة التي بينكما لا تجعلها عذرًا. اجلبه إلى هنا إن لم ترغب بالاستقرار في الوطن. لا أدري كيف استطعت أن تهجره هكذا رغم قلبك

telegram @ktabpdf

الطيب، لكن الأيام كفيلة بإصلاح ما بينكما، ولبدء علاقة متينة بين أبٍ وطفله. صدقني يا غسان، لن أكون حاجزًا بينكما، أريده.. طفلك هو طفلي.

شعرتُ بكِ تعيدين ترتيب حياتي، تضعين الأشياء في مكانها الصحيح، وتفتحين نوافذ قد هُجرت؛ لتعود شرفةً ينام فوقها الطيور.

نظرتُ إليكِ، وكنتُ قد أدركت تمامًا ما أقوله، ولماذا أقوله.

- هل تتزوجيني؟

نهضتِ ووقفتِ أمامي. مددتِ يدكِ صوبي كما تفعلين كلما أردتِ أن تغيري مجرى الحياة. ثم قلتِ:

- ظننتك لن تسأل!

*

مكتبة الرمحي أحمد

حين حلّت إجازة «الإيستر»، كنا نوظب حقائبنا معًا.. نسأل بعضنا عمّا نكون قد نسيناه، عمّا يمكننا التخلي عنه في هذه الرحلة القصيرة. قلتُ لكِ حينذاك: رجلٌ لديهِ أنتِ، هو مستعدٌ للتحليق على الدوام!

في الطائرة المتجهة إلى دبي، كانت الشمس أقرب إلينا، تشرق على خيطٍ من سحاب، ضوؤها يقلق عينيكِ في سباتهما، فتقلبين وجهكِ هربًا منه، حتى يستقر رأسكِ على كتفي. وضعتُ كفيّ على شعركِ، ورحتُ أهذي بكل ما في قلبي لكِ. لم يبدُ أنكِ تسمعيني، ولكني واصلتُ الكلام؛ علّ قلبكِ كان مصغيًا لي.

حين انقضت ست عشرة ساعة من الهذيان، والتحليق، كنا قد وصلنا إلى مطار دبي.

وأمام بوابات الترانزيت، كان الأمر أشبه بوداعٍ عابر! قلتِ لي بأن رحلتكِ إلى الدمام ستنطلق من صالةٍ أخرى، وأنه يتوجب عليكِ الذهاب الآن.

توقفنا كغريبين يحدقان في بعضهما البعض، لا ندري ما يمكن أن يهون علينا هذا الغياب، وكل كلمةٍ تخطر في بالنا هي أقل مما يقال لحبيب يحمل الحياة معه، حتى ضممتني نحوكِ بقوة، شعرتُ بكِ تنفذين إلى ضلوعي، تبعثرينها ثم تعيدين

telegram @ktabpdf

ترتيبها. قلتِ لي بأنكِ ستفتقدينني. أجبتكِ أنها ستكون أيامًا قليلة، ثم نعود معًا كعائلة لا كهاربين إلى الغربة.

هززتِ رأسكِ تأكيدًا على إجابتي، ثم رحتِ تعبثين بخصلاتِ شعركِ. أردتُ أن أسألك عمّا يدور في خلدكِ، ولكن لم تدعني قبلتكِ التي جاءت على عجل، ثم تبعها صوت أقدامكِ المبتعدة.

*

حين استقريت على كرسي الطائرة المتوجهة إلى الرياض، أخرجتُ هاتفي وأرسلتُ إلى سعد بأني سأكون في المطار بعد ساعتين. سرعان ما اتصل بي، كان صوته متعجبًا من رسالتي، أكدتُ له أني قادم، فقال:

- فهد.. سيكون معي.

*

مكتبة الرمحي أحمد

عندما أعلن الكابتن عن بدء الإقلاع، تذكرتُ الطريقة التي حدث بها وداعنا، خصلة شعركِ التي تلتف على أصبعكِ.. وعيناك الشاردتان. فكرتُ بأي جزءٍ كذبتِ به.. هل كان مقدار حزنكِ على فراقنا المؤقت؟ أو أنها دمعة بدت صادقةً في حينها؟ أم أنه لن يكون ثمة لقاء آخر بيننا؟!

تجاهلت كل ما دار في رأسي.. قلتُ لا بد أنها كانت متعبة ولا تدري ماذا تفعل.

كانت الطائرة تتعلق بالهواء شيئًا فشيئًا حينما اتصلتِ بي، أجبتُ مكالمتكِ، ولكن لم أفهم ما تقولينه:

- غسان ... ارجع... لا تذهب..... آسفة.

وانقطعت المكالمة...

*

telegram @ktabpdf

(١١)

تعلمت أن أحبّكِ في هجرٍ طويل أو في وصالٍ مديد.

وعلمني حبكِ ألا أتوقف كلما حالت بيننا لحظات خوف، دقائق قلق، أو ساعات من غيابٍ مرير. علمني أن رجلاً مهزومًا لا يملك سوى الانتظار، وبضعة أمنيات لا يدري كيف السبيل إليها! لكنه يحملها في داخله لئلا يسقط في هاويةٍ لا عودة بعدها.

كلما عبرت ذاكرتي لحظاتنا، يولد نجمٌ جديد في السماء، وينتهي بردٌ قاس في مكان ما، وتقول الورود كلمتها الأولى دون خجل.

ممتلئًا بالفرح كنتُ، هائمًا لا أبغي رشدًا، أسير حيث يأتي صوتكِ، وأقلب صفحات التاريخ لأضع اسمكِ أولًا حيث يقولون: كان لها مجنون.

*

ظننتُ أن الأمر أصعب من أن يكون، لكن سرعان ما اعتدتُ على وجهِ فهد. لم يتأخر في مناداتي بـ «أبي» وكأنه قد عاش حلمًا طويلًا وقد تحققت أمنيته أخيرًا.

يسألني متى أرحل مجددًا، ومتى أعود إليه. أجيبه بأني لن أتركه، سأكون معه دائمًا؛ فيضحك ببراءته متناسيًا أياما طوالاً قضاها بعيدًا في غربةٍ لم يخترها. ويصفح كملاكٍ عن زلةِ إنسان لم يرد سوى النجاة بروحهِ.

كان يسأل أحيانًا أخرى عن موعد عودة أمهِ. يقول أنها يجب أن تعود الآن؛ فلم يتبقَّ سواها لتكتمل اللوحة التي رسمها وكان يحدق بها في كلِ يومٍ مضى، حيث ينتصفني وأمه. يمسك بأيدينا لئلا نتركه، وفي خلفنا سحابة زرقاء صافية تختبئ خلفها الشمس.

أخبره أن للأمنيات حدود، وأنها معه في كلِ مكان يذهب إليه. فيسأل: هل هي ترانا الآن؟ لا أقوى على الرد؛ فتنطلق أمنيتهُ نحو السماء: ماما .. تعالي عندنا، بابا جاء!

حين يشرد ذهني بعيدًا عنه، أفكر بغيابكِ الطارئ، برسائلي ومكالماتي التي لم تجد ما أرادته، يقترب مني، ويسأل عمّا أفكر به. أخبره بأني أضعتُ شيئًا ثمينًا ولا أدري كيف أعثر عليه. يمسك بيدي، ثم يقول وهو ينظر إليّ:

telegram @ktabpdf

- أخبرتني أمي ريم أن الله يسمع دعاءنا. أنا دعوت الله و سمعني !

- كيف يا فهد؟

- قلت له «جيب بابا لي».

ليت لي قلبًا نقيًّا كقلبه، تنفذ دعواته بين السماوات إلى أن تصل إلى وجهتها؛ فتعود الإجابة بالمسرات.

*

مكتبة الرمحى أحمد

كان صبري ينفد يومًا بعد يوم، لم أترك شخصًا أعرفه إلا وتوجهتُ إليه بحثًا عنكِ. لم يكن من المعقول أن تغيبي هكذا! تتخلصين من كل طريقٍ يدلني عليك، وتختارين غيابًا طويلًا لا يشي بخير.

اتصلت بأنثوني مراتٍ عديدة، وكان يخبرني في كل مرة أنه لم يتلقَّ اتصالا منكِ. يحاول أن يهدئ من روعي الذي يصله في صوتي وهو يسرد لي مئات الأعذار والأسباب. تنتهي مكالمتنا وأبقى في حيرتي.

طلبت منه ذات مرة أن يذهب إلى كل صديقةٍ لك، يسألهم عنكِ، عن أي أمر يدلني عليكِ، ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئًا عنكِ .

ظننتُ أن هذه خطة القدر المثلى لي، نعود إلى الوطن، أطلبكِ من أخيكِ، تكونين لي، يعود فهد إلى حياتي، ونقضي ما تبقى في حياتنا دون أن نلتفت لكل حزنٍ مرّ صدورنا.

لكنها تبدو الآن كطريق مسدود لم ننتبه لعبارة تحذيرية وضعت أمامه؛ فرحنا نفرق بين خطواتنا طمعًا في وجهته الأخيرة.. حتى ابتلعتنا هاوية في منتصفه.

الأيام المعدودة على موعدِ العودة كانت تتساقط من قلبي.. كلما مضى يومٌ شعرتُ بالعمر يأكل وجهي، وأعبر

telegram @ktabpdf

سنين العجز.. وأرتجي ألا تكون لي خاتمةً.. لا تكتملُ بكِ.

تمهلي أيتها المستقرة في أعماقي، ما لي لا أجد فيكِ حنينًا يعيدنا إلى سابق العهد حيث تتشابك أصابعنا، ونسير معنا محفوفين بأغنياتكِ، بصوتكِ الذي كان يعيدني إلى طفولتي حيث أتعلق بكِ، وأمطر معكِ.

في محاولةٍ أخيرة لوكز وترٍ في قلبكِ، تذكرتُ رسالتكِ التي بعثتِها لي على بريدي الإلكتروني، وجدتها فرصة لأرسل لكِ ما يضيق به صدري، ولأدحر كل عذرٍ يمنع وصولي إليك:

(لم أكن أظن أني في يومٍ ما قد أكتب إلى امرأةٍ قد سكنت صدري، حتى أصبحت عيناها راحتي وهلاكي، ولم يدر في خاطري يومًا أني أقع في شباك الحبّ ولا أملك سوى الاستسلام. أكتب إليكِ اليوم وفي عينيّ بحر من الدمعات، وألفُ رايةٍ للحنين.

لا أحبّ لعبة الكلمات، وتفسيراتها، وطريق الكتابة الغارق في المعاناة، لكني أجد نفسي مجبرًا أن أخطو إليكِ عبرها، وأن أضع ما يثقل أيامي بالحزن والقلق على ميزانكِ.. سائلًا إياكِ أن تحلي قضيتي، وتعدلي بيني وبين ما سرقه الغياب من أحضان، ونظرات، وصوتٍ كان يبعث في مهجتي الأفراح.

مكتبة الرمحي أحمد

لـم أدرك كـم هـو قـاسٍ هـذا الغيـاب! ومعنـى أن أتـوه فـي خرائـط الحنيـن، أبحـث عـن مخـرج يدلنـي عـن نصفـي الآخر، ذلـك الـذي أضعتـه دون أن أدري، وكيـف أن تاريخـي يسـتحيل إلـى لحظـاتٍ معـدودة، تغيـب فيهـا كل الوجـوه ويبقـى وجهـكِ خالـدًا بها.

تخيلـتُ حياتـي لـو أنـي لـم ألقـاكِ؛ فلـم أجـد سـوى صـورةً لوجـهٍ كئيـب يعيش فـي قوقعة من حـزن.. ليس لديـه غاية واحدة سـوى الهـروب مـن كل ما تعلـق فـي ذاكرته.

أنا من صالحتني الأيام عندما وضعتكِ في طريقي.

قـد تخليـت عـن الحـبّ منـذ أن فشـلت كل محاولاتـي فـي البحـث عمـن يشـاركني ضحكـة واحـدة، ثـم وجدتـه يسـحبني كالطوفـانِ.. يغرقنـي وينجينـي، يميتنـي ويحينـي، ويعـب فـي صـدري جنونًـا، واشـتياقًا، وطمأنينـةً، وخوفًا، ومـا كان لي طوق نجـاةٍ منـه! فرحتُ أسـاير موجـه، حتى رمـى بي في مـكانٍ بعيد.. وحيـدٌ أنتظـر أن يهيـج مـن جديد.

لا تعرفيـن كـم أنـا وحيـد! ليـس لـي أحـد سـواك، ولا أعرف قلبًـا يفهمنـي غيـر قلبـكِ. محـاط بفراغـاتٍ لا أقوى علـى ملئها، وأنـاسٍ يصعـب علـيّ الانسـياق إلـى أحاديثهـم؛ فأختبـئ كلصٍ لا يـدري كيـف سُـرق فـؤاده. كلّ دعـوة فرح تصيـر مزيفـةً إن لم

telegram @ktabpdf

تكونـي فيهـا، وليس ثمـة معطف أو حضـن يقوى على هـذا البرد الـذي يجتاحني سـوى صـوت أحبّـه.. صوتكِ!

رُبمـا تجيبـي رسـالتي، ورُبمـا تتجاهلينهـا، أو لا تصلك.. وما بيـن الاحتمـالات، هنـاك رجلٌ مـا يزال يبحـث عنكِ.

حسـبي أنـي أراكِ هنـاك، حيـث نعـود إلـى مـا كنـا عليـه.. مجنونـان.

غسان)

*

مكتبة الرمحى أحمد

حينما حلّ يوم العودة كنت أقف وحيدًا كشجرةٍ تتساقط أرواقها، تهزها ريح عتية وتقاوم في انتظار لحظةٍ تعودين إليها.

أنتِ ماء قلبي، وغيابكِ موسم الذبول.

كان فهد يتعلق بكفي فرحًا لأنه يتنقل الآن إلى حياة أبيه. أعدّ حقيبته بنفسهِ، ولم يضع فيها سوى ملابس قليلة وتلك اللوحة التي ما يزال يمني نفسه بأن تحقق صورتها.

وقبل أن نخرج للمطار، أخبرني أخي سعد بأن أبي يرغب برؤيتي. كنتُ مستغربًا من رغبته التي تأتي في آخر الأوان. منذ عدتُ إلى الوطن وأنا أبحث عنه، وددتُ لو أصافحه لمرة واحدة وأقول لنفسي أنه ما زال لي أب. ولكنه إما في سفرٍ أو في عزلةٍ مع زوجته التي قال لي سعد أنه تزوجها قبل ثلاثة شهور فقط.

ذهبتُ إلى منزله بصحبة فهد وأخي سعد قبل أن نتوجه للمطار، وحينما طرقنا الباب فتحت لنا زوجته. ألقيت نظرةً خاطفة نحوها، ثم خجلتُ أن أنظر إليها مجددًا. تبدو شابةً جدًا على كهلٍ تجاوز عامه الستين. ترتدي ملابس ضيقة تظهر مفاتنها.. تمامًا كما كانت عفاف تفعل. صوتها قوي ومليء بغنجٍ مصطنع.

أجلستنا في صالة المعيشة، وظلت معنا. كانت تحاول عقد

telegram @ktabpdf

جلسة وئام بيننا. تحكي لنا كم هي مغرمة بأبي، وكم أنها لم تتوقع أن تقع في حبه بهذه السهولة! تعدد لنا صفاتٍ بهِ لم نعرفها منذ أن خرجنا من صلبه، وتسرد قصصَ رحلاتهم معًا.

نظرتُ إلى أخي سعد وهي تتحدث؛ فأشار لي بحاجبيه أن أبتلع الكلام وأصطنع البهجة. كلما سألناها عنه؛ تقول سيأتي الآن.

بعدما مرت نصف ساعةٍ على ثرثرتها، رأيته.. رأيت رجلًا يشبه أبي.

لم تكن له لحيته الطويلة، حلق ذقنه وأبقى على شاربه بعد أن صبغه بلون الشباب. يبدو بصحةٍ جيدة، اختفت مشيته البطيئة.. وصار يمشي كشاب في ريعان عمره. ركض نحوه ابني فهد؛ فرفعه إلى الأعلى وهو يضحك قبل أن يضمّه نحو صدره. لا أذكر أنه كان لي لحظة عناقٍ مشابه، كل ما أذكره عنه هو لحظات بائسة، وخيبة أمل كان يلقيها عليّ مذ كنت صغيرًا.

اقترب منا وألقى السلام قبل أن يجلس على الأريكة. وكزني سعد بأن أذهب للسلام عليه؛ ففعلت. كان سلامًا باردًا لم ينظر فيه إليّ، اكتفى بكلمة واحدة: هلا.

قلتُ في نفسي أنه يستطيع أن يغير من شكله، وزوجاته،

مكتبة الرمحي أحمد

ويبتاع منازل كثيرة بماله، لكنه سيبقى غريبًا في قلبي.

وددتُ لو أسأله: هل تذكر أمي؟ هل تعرف من أنا؟ أم أنك تتجاهل حقيقتك، وترتدي وجهًا جديدًا تظن أنه عمرك الحقيقي! وما قبله لم يكن شيئًا يستحق.

لكني آثرت الصمت على أن أعيش معه حوارًا جديدًا يتغلب فيه عليّ بكلماتهِ الجارحة.

كان يداعب فهد ويقبله، حينما أخبره بأنه سيذهب معي. سأله فهد قائلًا: جدي... تروح معنا؟ فلم ينطق بكلمة.

حينذاك أدركت أني أهزمه كلما هربتُ مبتعدًا عنه، وصنعت لي حياةً لا تستطيع يده أن تنفذ إليها.

مضى الوقت كرمحٍ يثقب صدري، أشرتُ إلى سعد بأنه يجب علينا الآن الخروج؛ فانتبه لإشارتي وقال:

- إلى أين؟

- المطار. رحلة غسان بعد ساعتين فقط.

رد عليه سعد. التفت صوبي للمرة الأولى وقال لي:

- وما لديك في هذه الغربة؟ ألم تنتهِ رحلة الهروب هذه؟ حين عدتَ ظننت أنك كبرت وأصبحت رجلًا، لكنك كما أنت، غبي ولا تفهم ما تطأ قدماك فوقه. تركت ابنك يكبر دون أن تكون بجانبه، تركته يبكي على فراقك، كلما رآني سألني

telegram @ktabpdf

عنك؛ فلا أجد ما أجيبه به. انظر إليه، انظر جيدًا، هذا ما فوته من حياتك. قد لا تحترمني، وقد أكون لم أعاملك بليين كما كانت تفعل أمك. لكني أفضل منك؛ فأنا كنت هنا. معكما أنت وأخيك، ولم أغادركما أبدًا.

لم أنبس ببنت شفة، كنت أنظر إلى عينيه مباشرة. شرارات الغضب تتصادم بين وجهينا. ثم نكس رأسه وهو يقول:

- إذًا، لا بد للصبي الطائش أن يتأدب. انتظرني هنا.

غاب عنا لدقائق ثم عاد يحمل أرواقًا في يدهِ. رمى بها أمامي، على الطاولة، وقال:

- هنا كل ما ستعود من أجله. آمل أن تفهم الدرس الآن.

لم أتحرك من مكاني، كنت أكبح كل الكلام في صدري وأقول لا أريد أن أجرحه.. فلينتهِ هذا اللقاء البائس كما انتهى قبله الكثير، وبعد ذلك لن أرى وجهه إلا حينما أنثر التراب على قبره.

جمع سعد الأوراق المتناثرة قبل أن يجلس بجانبي. زوجة أبي ذهبت للداخل، وفهد جاء خائفًا وجلس في حضني.

وبينما كان سعد يقلّب الأوراق ليفهم ماذا يجري، لمحتُ صورةً على إحداها. جذبت الورقة بقوة؛ فشقت إلى نصفين. النصف الذي بقي في يدي، طبع عليه صورة لجواز سفر،

مكتبة الرمحي أحمد

وبجانبـه بيانـات صاحبـه.. كانـت صورتـك أنتِ.

صرخت دون وعي:

- ساره!

*

telegram @ktabpdf

(١٢)

كما لو أني آدم في أولى خطواته على هذه التربة الرطبة، يحدق في الأفق السماوي ويسأل نفسه: كيف سقطتُ من عليين

مشكلة الحبّ أننا لا نعرف بأي شكلٍ يأتي، وبأي طريقةٍ يغادر، نحن في أرضه تائهون، نمني الروح بنهاياتٍ سعيدة.. فيحصل بعضنا عليها، والبعض الآخر يرى الوجه الحقيقي له، حيث لا يجد سوى المزيد من الجراح.

ليس ثمة ذنوب تُمحى، وليس ثمة جراح تشفى. أما ذنبي؛ فقد كنتُ متطرفًا في حبكِ، وهبتكِ روحي دفعةً واحدة ولم أخف أن تسرقيها في يومٍ ما. وأما جراحي التي ظننتكِ دوائها؛ فلم تجد سوى يدٍ تدميها.

ألم أخبركِ أني لا أجيد سوى القراراتِ الخاطئة؟ فهل تدليني أين تحديدًا كان خطئي معكِ؟

مكتبة الرمحي أحمد

أليس من العار أن ننتهي كهذا؟ يا وجه الصباح، أين تكون صباحاتي الأخرى إن لم تكوني مشرقها، وأين أولي وجهي عن كل شمسٍ يصلني ضوؤها؛ فلا أشعر بشيء سوى البرد في داخلي. كيف أتراجع الآن عنكِ وأنا الذي تلتصق بكِ روحه في حضورك، في غيابك، في لحظات سعدكِ، وفي أيام حزنكِ!

أود لو أقضي ليلةً واحدة معكِ، أسكب فيها عمري كله، وأعلق على دقيقتها الأولى تعب السنين ثم أنساه في أحضانكِ.. فأصير كملاكٍ لا يحمل سوى النور في داخله. تقولين لي: ضمّني. فأسقط كقطرة ندى على أوراقكِ. تنامين على صدري.. وأظل أحكي لكِ حكاية غريبين ظنا أنهما يغيران بوصلة الحبّ إلى اتجاهٍ جديدٍ لم يسبقهما أحدٌ إليه، حتى أضاعا بعضهما البعض، ولم يجدا طريقًا للعودة. ثم أصمت، تاركًا المجال لعيني تتأملك، تلتقط كلّ ملامحكِ، ما بين شفة غواية، وجفنٍ نائم.. وخصلة شعرٍ تمتدُ من رأسكِ وتستقر هناك على مفرق صدرك. تتمتمين باسمي وأنتِ نائمة؛ فأمسح على خدكِ الدافئ لأقول لكِ: إني هنا.. غارق فيكِ، لم أذهب لمكان آخر، سوى سفر سعيد في تفاصيلكِ الحلوة.

telegram @ktabpdf

أركب بحارًا وأعانق سماواتٍ وتظلين بجانبي.. حتى إذا طلعت الشمس وليس في حوزتها دليلًا على جنون ليلتكِ السابقة.. سوى رماد رجلٍ احترق وهو يودعك.

*

منذ لقائي الأخير مع أبي، وأنا في صمتٍ أبدي.. حجارةٍ لا تفهم سوى لغة السكون. مضت الأيام متتابعة، لا مبالية بحزنٍ يخيم على قلبٍ في عالمٍ يتجاوز سكانه السبعة مليارات نسمة.

كانت روحي في عتمةٍ طويلة، وشعرتُ بأني أفقد كل شيء: صوتي الذي نسيت رنته، ووجهي الذي احتلته لحية مبعثرة لا تشي بشيءٍ سوى الحزن، ونسيت الكلمات.. وكيف للإنسان أن يشعر بالغضب، بالحبّ، بالحنين، وبالكره. دخلتُ إلى متاهةٍ مظلمة، لا أبحث عن أحدٍ فيها، ولا يدور في رأسي شيء داخلها. رغبتُ أن أصل سريعًا إلى يومي الأخير لي في هذه الحياة، أدفع باب الخروج بقدمي، أدخل وألتفت إلى الوراء؛ لأبصق عليه قبل أن أهوي إلى عمق النسيان.

عتمة الروح هي أقصى أداة للتعذيب قد عرفتها الإنسانية! أعرف هذا لأن ليس ثمة طريق للنور.. ما إن تصل إليها، وكل محاولة هي تكرار لمشهدها الأول، المشهد الذي كان

مكتبة الرمحي أحمد

يأتي بصوت أبي، يخبرني عمّا فعله بي، وكأنه لم يكتفِ بأن يتجاهلني طوال حياته، وحين اهتم لأمري، أفسد حياتي كلها:

– هُنا كل ما ستعود من أجله، آمل أن تفهم الدرس الآن. ساره... لم تكن حبيبةً لك، ولم تحمل في داخلها أية مشاعر تجاهك. كانت تبحث عن خلاصها فقط، وجدتك فرصة للنجاة؛ فوافقت. تظن أنك التقيتها مصادفة؟ لا .. كان كل شيء يسري كما خطط له. لم أعرفها إلا حينما جاءت تتوسل إليّ بأن أعيد أخاها إليها، ولم يكن أخوها سوى مغفل اقترض مني مبلغًا كبيرًا من المال ولم يستطع الوفاء به. كانت هنا، بين أقدامي، مستعدة لأن تقبلها من أجل أن أتنازل عن أخيها. لم أكن لأفعل، حتى بلغني أنها كانت تدرس في أمريكا، وقطعت دراستها لتعود وتخرج أخاها من السجن. عندها فكرت بك، بابنك الذي لا تعرفه ولا يعرفك، ولكنه يعيش كل يوم على أمل أن تعود إليه. بكل بساطة، اقترحت عليها أن تذهب إليك، وأن تعود بك إلى هنا، حينها فقط ستنتهي معاناتها. وافقت شرط أن يخرج أخوها من السجن فور وصولها إليك؛ فلم أمانع. لقاؤكم في المطار كان مخططًا له، راسلت جامعتك وطلبت منهم أن يوكلوا مهمة استقبالها لك بعدما أطلعني أحد موظفيها على نشاطك معهم، وبعد أن نال

telegram @ktabpdf

نصيبه. في البداية.. لم أصدق أنها معك؛ فأرسلت لي صورةً كنت تقف فيها أمام سيارتك في محطة الوقود، وطلبت مني أن أكمل جزئي من الاتفاق؛ ففعلت بعدما أخذت من أخيها اعترافًا خطيًا يدينه بما لي عنده. خرج من السجن وظل معلقًا لا يدري متى أستخدم ما عندي ضده. ولكنه لم يعلم أن ساره قد تحملت عنه معاناته! يظن أنها عادت إلى غربتها الأولى. كانت رسائلها تنقطع، وحينما أحاول الاتصال بها لا أجد سوى هاتف مغلق. ظننت أنها قد هربت، وأنه حان الوقت لأزج بأخيها في السجن من جديد؛ فتوجهت إليه وأخبرته بأني أمهله شهرًا واحدًا ليدفع ما اقترضه مني. في يومها، اتصلت بي قائلةً إنها ما زالت معك، وأن شهرًا إضافيًا سيعطيني ما أردته. فقط عندما اتصل بي سعد ليخبرني أنك قادم في ذات الليلة، علمتُ أنها وفت بعهدها. قد تنكر كلامي هذا كله، هذا قرارك؛ فافعل ما تريد. لكن انظر لكل هذه الأوراق، ستجد فيها كل ما أخبرتك به.

*

مكتبة الرمحي أحمد

يقول أخي سعد إني في حالة اكتئاب، وأنه مرض كسائر الأمراض الأخرى، له علاج، لكن يجب عليّ أن أحاول. يسرد ما عنده من كلام حفظه من نافذةٍ إلكترونية طبية ثم يودعني عندما يدرك أن لا فائدة له من كل ما يفعله، وأبقى واقفًا أحدق في النافذة الصغيرة، في شباكها الحديدي، وأعلم أني أصبحت سجينها. *أحمد*

بكيت لمرة واحدة فقط.

حينذاك كان فهد يجالسني في غرفتي ككل يوم، يحكي لي عمّا فعله في يومهِ، يرجو أن يسمع كلمة مني، وثم يرحل حزينًا على أمنيته التي تحققت بطريقة مشوهة. لكن في تلك المرة لم يغادر، جلس أمامي ونظر إلي مباشرة، أدرك أن عينيّ شاردتان؛ فتبع وجهتها، ثم وقف أمام النافذة يحاول أن يصطاد نظرةً مني، وحين أدرك أنه لن ينجح، تقدم نحوي ثم هوت كفه الصغيرة على وجهي.

نظرتُ إليه، كانت عيناه ممتلئتين بالدموع، انفجر باكيًا ورمى جسده الهزيل فوقي؛ فبكيت، وبكيتُ.. حتى نسيت كيف أتوقف عن البكاء.

telegram @ktabpdf

كل ما أشعر به الآن أني عالق في برواز لحظة، لستُ أعيشها، ولستُ أفهم ما فيه، وليس ثمة أمر يدور في داخلي لها. تكبر تلك اللحظة إلى دقيقة، ثم ساعة، حتى تصبح أيامًا ولياليَ يتآكل فيها جسدي، وتمتصني أحزان إلى بوابات العدم.

لم يكونوا غرباء، أولئك الذين كسروني، كانوا دائمًا يسكنون القلب.

ولم أكن بحاجةٍ لأخسركِ حتى أدرك أني واقع في مصيبة؛ فقد أخبرتُكِ أن الكون في سلامٍ مديد منذ أن أحببتكِ، وفي جمالٍ مكتمل اسمه: عيناكِ.

وهذا كافٍ لأن أكون على خط الخطر دائمًا/ أن أفقدكِ، ويزول من فؤادي كل شيء يبقيني حيًا.

*

(١٣)

انقضى شهران وأنا في حالة اعتكاف على خسارتك.. خسارتي.

جاء إليّ سعد وقال:

- حرام ما تفعله بنفسك، أنت لا تنهي وجعك هكذا، بل تمنحه فرصةً بعد فرصة كي يتمكن منك. ألم ترَ نفسك بالمرآة؟ لقد أصبحت شخصًا آخر. ألم يحن الوقت لتفيق مما أنت فيه؟ كلمني غسان.

أود أن أجيبه، لكني كنتُ قد ابتلعت كلّ الكلام، وهناك معركة تجري في داخلي ولا يمكن أن أبالي لغيرها.

صمت لدقيقة، ثم أضاف وهو يفرك يديه غضبًا:

- يا أخي، إن كنت تحبها بهذا الجنون فلمَ لا تذهب إليها؟! لا يبدو أن كل ما عرفته عنها مثال ذرة أمام هذا التعلق الذي يلقي بك سجينًا لهذه الغرفة، وأعلم لو أنها رحلت من قلبك منذ تلك الحادثة، لما ظللت هنا. نادية من قبلها.. حينما كان قلبك خاليًا من الجراح، أدمته حتى أصبح كقطعة ميكانيكية،

telegram @ktabpdf

تعمل فقط ولا تشعر بشيء، ولكنك وجدت مخرجًا لذلك، لقد هربت. قد تلقيت لكماتٍ كثيرة في حياتك، وأعترف أني لم أكن بجانبك عندما كنت تتألم منها.. ولكني هنا الآن يا غسان. لن أدعك تغرق أكثر. قمّ معي الآن... لنبحث عنها!

التفت عليه وكأنه قال أمرًا يستحق أن أستيقظ من أجله. نظر إليّ وهو يضع كفيهِ على وجهي، وقال:

- نعم؛ فلنبحث عنها يا غسان. لنضع نهاية لهذا الدمار.

*

تحدثت إلى سعد للمرة الأولى عندما كنّا في طريقٍ بري من الرياض إلى الدمام. الليل يكتسي السواد، وأضواء السيارات القادمة في الاتجاه المعاكس تعميني، والأغنيات تتدفق واحدةً تلو الأخرى على موجة المذياع.

حينذاك، سألني عنكِ.

- أخبرني، كيف تبدو؟ على الأقل أعرف لمن نتكبد هذه المشقة.

صمتُ لبرهة، لم أكن أرغب بالحديث، حتى عبرتني كلمات تلك الأغنية، «لحن قلبي»، من أثير المذياع، فكأن شيئًا من النور قد ثقب صدري المتهالكِ ظلمةً.

مكتبة الرمحي أحمد

عادت ذاكرتي إلى مواضعها السابقة، وانسل شريط الذكريات الطويل، والذي لم يكن بهِ سواكِ. أخذني إلى ذات الأغنية، ولكن في مكانٍ آخر، في صباحٍ بعيد حيث بدأ بهِ كل شيء... ونطقت:

- ساره متوسطة الطول، حين تقف بجانبي يصبح كتفي وسادةً لرأسها. شعرها أسود كثيف، حين ينسدل على ظهرها يكون هناك عناق أزلي للسماوات، لصبحها ومسائها. حين أنظر إلى عينيها؛ أجد دليلًا جديدًا بأن من صنعها لا يمكن أن يكون سوى ربٍّ واحدٍ أحد. تضع كفها على ثغرها كلما ضحكت، ولو أنها لا تفعل هذا لوقع في غرامها قبيلةٌ كاملة. تتورد الزهور على شفتيها، وتهجر الطيور مساكنها لتقف على غصنٍ واحد يطل على نافذتها. كلما أحببتها أكثر؛ تمهدت ليّ سبل النجاة، وعثرتُ على إجابةٍ لمعضلة غربتي، وضياعي، وحزني.

قاطعني سعد قائلًا:

- يكفي... يجب أن نعثر عليها!

*

telegram @ktabpdf

عندما وصلنا إلى مدينة الدمام، كان الوقت متأخرًا لنجوب الشوارع بحثًا عنكِ.

اقترح سعد أن نرتاح في أحد الفنادق ونخرج صباح اليوم التالي؛ فوافقت. استلقيت على السرير تلك الليلة وفي رأسي ألف احتمال، أقلهم قسوة هو أن أراكِ غدًا.

*

كان البحث عنكِ أشبه بالتعلق بفكرةٍ خاطئة، ورغم أني أدرك فداحة الخطأ، أتقدم نحوه بلا قلق.

من بيتٍ إلى بيت، ومن أملٍ إلى آخر، طرقنا الأبواب، ولم نجد أحدًا يدلنا عليكِ. كان أخي سعد يتولى مهمة السؤال، وأبقى مختبئًا خلفه لئلا تظهري من وراء باب؛ فأستحيل إلى رماد.

العنوان، الذي كتب على تلك الأوراق التي أعطاني إياها أبي، يقول أننا في المنطقة الصحيحة، لكن لا أحد يعرف اسمكِ الأخير. ظننت أنه قد يدلنا على أخيكِ على أقل تقدير، ومن هناك أجدك. حين ارتفع أذان صلاة الظهر، كان اليأس قد سكننا. بعد أن سكن النداء، التفت إليّ سعد قائلًا:

- الآن عرفت أين نجدها! في بيت الله!

توقفنا أمام مسجدٍ صغير. كانت خطة سعد الطارئة أن نسأل

مكتبة الرمحي أحمد

عـن أخيـكِ لدى إمام المسـجد. قـال: إنهـا أفضل محاولـة تبقت لنا.

كان المـاء يجلـي أجـزاءً صغيـرة، متناثـرة، مـن أحزانـي. منذ مـدة طويلـة لـم أتوجـه إلـى اللـه، وأجدنـي الآن أفعـل كغريـقٍ يسـبح باسـمه، ويسـأله النجـاة مـن بحـرٍ يبتلعـه. كانت تقـول لي أمـي أن فـي كل سـجدة إلـى اللـه بـابٌ يفتـح لإجابـة الدعوات؛ فصـرتُ ألفظ اسـمكِ بخوفٍ من أن يحاسـبني اللـه على لحظاتِ ابتعـادي عنه.

انتهـت الصـلاة، وانفضـت جمـوع المصليـن. رأيـت سـعد يتوجه نحـو إمام المسـجد المعتكفِ على سـجادته؛ فرفعت يديّ صـوب السـماء وتحدثـتُ إلـى اللـه: يـا رب، تعلم ما فـي داخلي مـن رجـاء، ومن أمل بـات يكبـر منذ شـعرتُ أني أسـامحها على كل شـيء. أغفـر لها مـا فعلته، ومـا تركتني له؛ فاغفـر لي واصفح عـن تقصيري. أسـألك يا مرشـد الباحث عـن ضلالتـه، أن تدلني عليها

بعـد لحظـات قليلـة، جـاء نحوي سـعد. نظـرتُ إليـه، فهمس لـي قائلًا:

- لن نجدها هنا.

*

telegram @ktabpdf

ليتني أستطيع سدّ منافذ قلبي، ولملمة شريط ذكرياتي، وأعود هاربًا إلى الحياة؛ فقد تعبتُ من هذا الارتطام ولم يعد في رئتيّ نفس واحد يقدر على المواصلة، أو الصمود أمام جرثومة الحزن التي تنخر روحي.

كانت العزلة دافعي الوحيد للكتابة إليكِ، وكنت أكتب ما يمليه قلبي، لا ما أريدكِ أن تقرئيه. ثم وجدتُ في الكتابة نافذة خلاصي؛ فأصبحتُ بها أخفف وطأة وحدتي، وأتحايل بوجودها لئلا أعود إلى طاولات الحديث.

تسوقني العبارات من سطرٍ إلى سطر كأني في حضرة الكتابة لا يمكن لي سوى الانصياع، وكلما حاولت التوقف انهمرت دمعة على خدي وأبقى منتظرًا أن تأتي وتمسحي أوجاعي.

.بات لا يهمني أن أعرف مع من تقضين أيامك، ومن يسكن فؤادك، ومن يضمّكِ إلى صدره لتهدئي، ومن يبكي عينيكِ جنونه، ويملأ فراغات أصابعكِ بيده.. إني أنسى ما كنا عليه، وما أردت أن نصير إليه، ولكن يبقى في داخلي صوتٌ ينادي: أغدًا ألقاكِ؟

أحنّ إلى ذلك التخدر اللطيف كلّما سقط رأسكِ على كتفي، وأحنّ للحظةٍ تدخلين فيها إلى قلبي وأغلق بابه عليكِ؛ أنا الذي لم يعرف أن لصدرهِ بابًا حتى هجرتِهِ.

مكتبة الرمحي أحمد

أيكفي أن أعيد إليكِ كلّ عناقٍ أدفأنا، كلّ أغنيةٍ أخذتنا إلى سلالم الحبّ، كلّ قبلةٍ تاهت بنا عن طريق الوحدة.. كلّ تحيةٍ نثرت على وجوهنا الوئام، وكلّ لحظةٍ جمعتنا، لأتخلص منكِ، وأعود إليّ؟!

أعود إليكِ كلما أردتُ أن أنسى. في حالة انفصام مشاعر. أثابر في مقاومة ظلّ الكلماتِ، وأضع بيني وبينه شمعةٌ صغيرة.. تنطفئ الشمعة، وأغرق في سوادهِ. أيتها المنبثقة في ذاكرتي، صورة وجهكِ عالية الرقة؛ فكيف لا أتوهُ وأتعثر، وكيف لا أعود إليكِ ووحدكِ كلمة السر للحياة؟!

ولا أفهم معنى أن أبقى في حالة انتظار! إنه لوجع أن أكون وحيدًا في غيابٍ ممتد؛ فسكة الحبّ مهجورة، وخطوط الولهِ مقطوعة، وعيناي من شدّةِ دمعها كأنها غيمةٌ في شتاءٍ مأسورة. لا بأس بهذا! أجيبيني فقط: أغدًا ألقاكِ؟

مضى على آخر عناقٍ بيننا ٢٩٠ يومًا

٩ شهورٍ ونصف،

٤١ أسبوعًا

٦٩٦٠ ساعة

و ٤١٧٦٠٠ دقيقة

كلها تساقطت من شريط حياتي، أنا الذي لا يكبر إلا بكِ.

telegram @ktabpdf

أغفر لكِ، ولستُ أدري أيّ ذنبٍ جمعنا، وبأيّ شعورٍ رحلتِ مني. أغفر لكِ ما نسيتِ أن تحمليهِ معكِ إلى غياهب الفراق.. وما وضعتهِ فيّ وأنتِ تنوين الابتعاد.

سلام الله على عينيكِ.. هذا فراقٌ بيني وبينكِ! قد جنيتُ ثمار حبكِ علقمًا، وأنا الذي كان من مياه قلبهِ يرويكِ.

اليوم أرسل لكِ حكايتي، ولم يكتب الله بها أمرًا يستحق القراءة سوى... أنتِ.

«غسان»

*

هممت بإرسال الملف النصي عبر البريد الإلكتروني إليها. ضغطت على زر الرفع لأرفق الملف، وعند خانة «عنوان الرسالة» توقفت كثيرًا. فكرتُ أن أدعه فارغًا؛ فخفت أن يذهب إلى صندوق الرسائل المهملة، ولا تنتبهي لرسالتي. في لحظةٍ واحدة كتبت العنوان: «سلام الله على عينيكِ».

ثم ضغطت على زر الإرسال.

انبثقت نافذة صفراء صغيرة على الشاشة، تقول أنه لا يوجد اتصال بالإنترنت لكي تُرسل. خرجتُ لأتفحص الأمر.. وعندما عدت، وجدتُ رسالةً على هاتفي. كانت من أنثوني:

«ساره هنا... ألن تأتي؟»

مكتبة الرمحي أحمد

تمّت.

٨-٨-٢٠١٧م

telegram @ktabpdf

للتواصل مع الكاتب:

iMohammedB

مكتبة الرمحي أحمد

سلام الله على عينيك

لم أكن أظن أني في يومٍ ما قد أكتب إلى امرأةٍ قد سكنت صدري، حتى أصبحت عيناها راحتي وهلاكي، ولم يدر في خاطري يومًا أني أقع في شباك الحبّ ولا أملك سوى الاستسلام. أكتب إليكِ اليوم وفي عينيّ بحر من الدمعات، وألفُ رايةٍ للحنين.

لا أحبّ لعبة الكلمات، وتفسيراتها، وطريق الكتابة الغارق في المعاناة، لكني أجد نفسي مجبرًا أن أخطو إليكِ عبرها، وأن أضع ما يثقل أيامي بالحزن والقلق على ميزانكِ.. سائلًا إياكِ أن تحلي قضيتي، وتعدلي بيني وبين ما سرقه الغياب من أحضان، ونظرات، وصوتٍ كان يبعث في مهجتي الأفراح.

لم أدرك كم هو قاسٍ هذا الغياب! ومعنى أن أتوه في خرائط الحنين، أبحث عن مخرج يدلني عن نصفي الآخر، ذلك الذي أضعته دون أن أدري، وكيف أن تاريخي يستحيل إلى لحظاتٍ معدودة، تغيب فيها كل الوجوه ويبقى وجهكِ خالدًا بها.

تخيلتُ حياتي لو أني لم ألقاكِ؛ فلم أجد سوى صورةً لوجهٍ كئيب يعيش في قوقعة من حزن.. ليس لديه غاية واحدة سوى الهروب من كل ما تعلق في ذاكرته. أنا من صالحتني الأيام عندما وضعتكِ في طريقي.

محمد السالم

iMohammedB

ISBN 978-603-90968-5-6

تشكيل TASHKEEL للنشر والتوزيع Publishing & Distribution
@Tashkeell